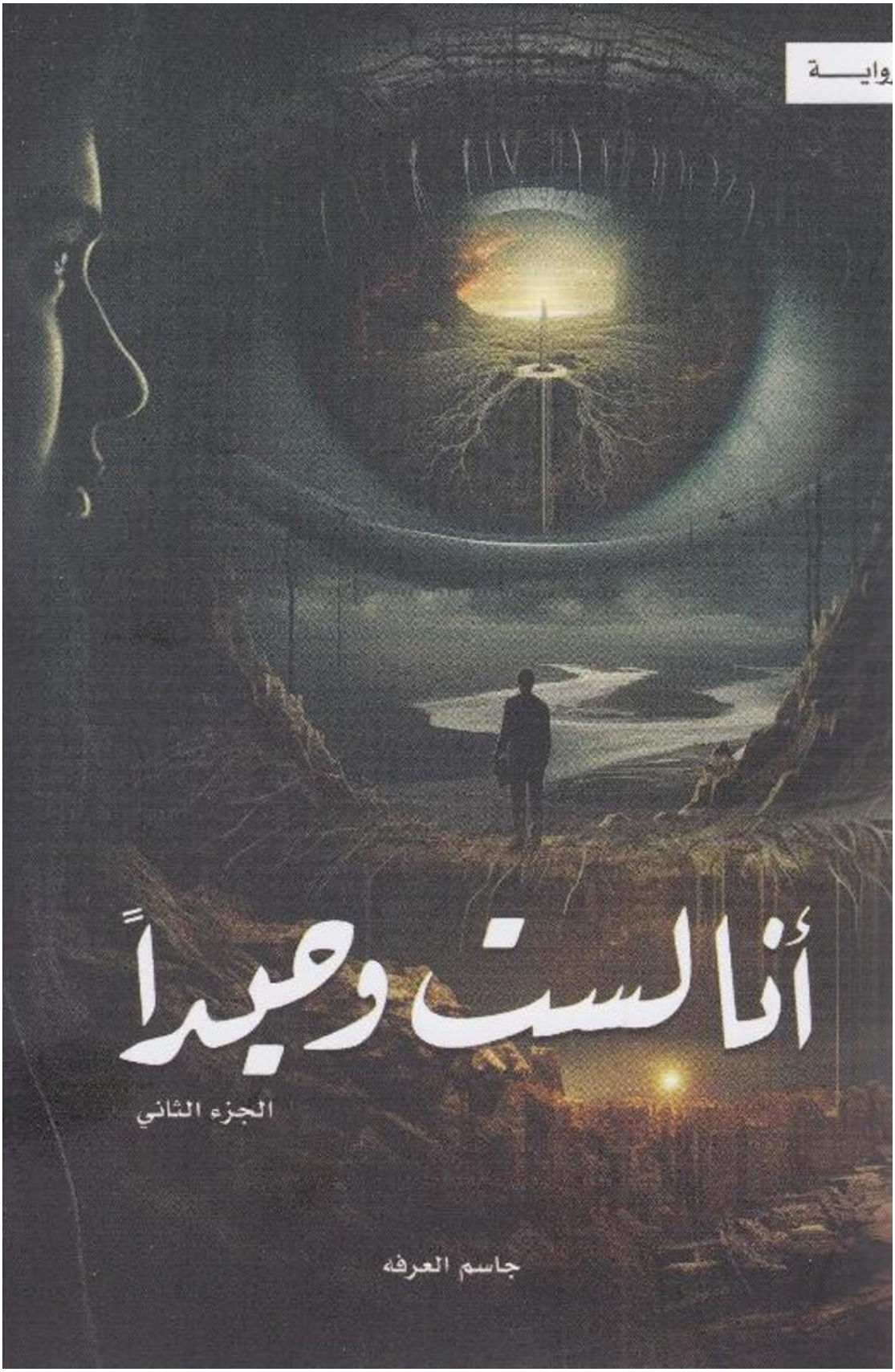
رواية
أنا لست وحيداً
الجزء الثاني
جاسم العرفه

تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

Mmr0521

تعديل وتدقيق:

□ .●*""*● ◟*Kenny*◞ ●*""*●.□

أنا لست وحيداً

الجزء الثاني

جاسم العرفة

أفتقد الحب ذلك الحب الذي يأتي بتفاصيله الساذجة، حين يتلامس القلبان بشهية مفتوحة للحياة والانتظار، حين يصبح الجسد على أهبة الاستعداد لكسر الملل المتربص بجدران صلبة لا يخترقها صدى حلم أو لحن عابر افتعل الموسيقا كي يثير الشهية للبكاء، لا شيء سوى البكاء.

"أريد افتتاح المسرحية الهزلية بحفنة من الدموع لأوصل اختلاج مشاعري المتناثرة على قضبان الضوء، فأنا عالق في الفناء أكرس نفسي لكسر الصمت، لأصرخ بكل ما أوتيت من شوق".

تدور تلك الكلمات حولي كزوبعة وتتقاذف أشلائي على قطع الأثاث لتجمعني من جديد، في عذاب يمتد على طول ضوء النهار، وتحتدم في عيني المتسمرتين على الضيف الشبح في صالة المنزل آلاف الصرخات المدوية، أستطيع الولوج إليه عبر ثقوب الكلمات المتراشقة والانكسارات واللوم الذي يسقط كحبات البرد على امتداد المكان.

"لا أقدر على قتله!! له هيبته السابقة ولي طيفي الذي يرتعد كتلك الومضات التي ترتجف في أضواء المنزل، لي خوفي القديم".

كل ما أستطيعه الآن هو الإنصات للحقائق مجبراً مهما كانت النتيجة، حيث لا تزال مها التي تعلو على وجهها معالم الصدمة والغضب تنتظر أن يستعيد أبي وعيه قبل محاولة فهم ما يجري لتفتح بعدها النار عليه، بينما تمسكت أمي بقطعة قماش تمسح بها شقاء وجهه المتحجر، لكن التعب الذي كان أقوى منه أجبر زوجتي على الانتظار حتى يغادر جميع من جاء لتقديم واجب العزاء.

حل المساء وطيفي الذي يرتطم بالمصابيح يبحث عن حريته مثل فراشة تحرق نفسها قصداً لتغادر هذا الكم الغريب من الجنون هذا الجنون الذي كان بمثابة تميمة حزن ترافق روحي منذ الأزل.

"روحي العارية تجسيد الخوف يختزل كل ما أنتظر سماعه".

قلت في قلبي عل طيفي يكف عن الارتعاش، قبل أن يئن صوته قليلاً محركاً شفتيه ومحاولاً طلب شيء

ما، لكن النهار الطويل وتعب استقبال الناس أرخيا بثقلهما على زوجتي وأمي اللتين أخذهما النوم على حين غرة على الأريكة في الصالة، وأبي الذي استمر بمحاولة لفت الانتباه دون جدوى كانت أنفاسه تتباطأ، كنت أشعر بها بحفيفها، برائحتها وبتقطعها على امتداد الفراغ كأنها ختام مقطوعة موسيقية لا يريد الله لي سماعها.

"لا يمكن أن تموت الآن لا يمكن أن تجعل أملي باكتشاف الماضي يندثر مجدداً!".

اهتاج طيفي وازدادت معه شدة ضوء المصابيح، لا صدى لي ليوقظ إحداهما لتسعفه، كان صراخي دون جدوى، كنت كالمجنون أتنقل عبر أثير المكان والأضواء تشتد أكثر وأكثر؛ حتى انفجر أحدها متناثراً في جميع أنحاء المكان.

"ماذا حصل؟!!".

صرخت أمي وهي لا تعي سبب هذه الجلبة، ثم نظرت حولها باحثة عن مها التي فزعت هي الأخرى وجلست على أريكتها تنظر لأبي وكأنها فقدت الذاكرة قبل أن تدرك ما يجري.

"لقد انفجر الضوء".

أعادت أمي شرح ما حصل لزوجتي التي نهضت لتزيل الزجاج المحطم قبل أن يجرح إحداهما، لكنها توقفت ما أن سمعت صوت أنين ضعيف وزفير يخرج بصعوبة، وتتجه نحو أبي الذي كان يستجمع أنفاسه المتقطعة محاولاً التحدث، فوضعت يدها على رأسه المتعرق لتستشعر حرارته وكأنها أعلنت هدنة معه مؤقتة.

"هل أنت بخير؟".

حاولت مها أن تستخلص منه إجابة تخفف قلقها، بينما اقتربت أمي نحوه لتطمئن أيضاً.

"كيف حاله؟".

"لا أظن أنه بخير، وجسده يرتجف".

"سأحضر له بعض الأغطية الإضافية".

قالت أمي بينما استمرت مها في رصد حركات وجهه ونظراته كانت عيناه المنهكتان تلاحقانها باستمرار وهي لا تستطيع التعبير عن مشاعرها الحقيقية والبوح بما تريد فعلاً قوله، فقد كنت أسمع نبضات

قلبها المتسارعة ولهاث أفكارها للوصول إلى كلام يخفف وطأة وثقل حالته وحالتها.

يجب نقله للمستشفى، حالته سيئة. أخبرت مها أمي التي وبينما كانت تضع بعض الأغطية الإضافية فوقه أمسك يدها بقوة كأنه يستنجد بها. وتمتم بعض الحروف العميقة ثم أشار بأصبعه نحوي وكأنه يراني.

"ماذا تريد؟ هل أحضر لك شيئاً؟".

قالت أمي بصوتها المرتبك كانت المرة الأولى التي أراها هكذا حيث لا تستطيع إخفاء مشاعرها وخفقان قلبها. بينما حاولت مها الغارقة في مشاعرها الإنصات لكلامه وحركات شفاهه، ونظراته التي لا تنفك تلاحق الجدار.

"هل يراني؟! لكن كيف؟ هل اقترب منه الموت لدرجة تمكنه من رؤيتي؟!".

في تلك اللحظة خطرت ببالي الكثير من الأفكار، لا أقدر على استيعاب الأمر أيضاً لكن كلماته التي كانت تستهدفني صارت أوضح.

يجب أن لا ننتظر أكثر سأتصل بالإسعاف.

لم تنه مها كلامها حتى صرخ أبي بصوته الخشن كعلامة رفض قاطع لاقتراحها، ومركزاً نظراته مرة أخرى عليها قبل أن يبدأ بعدها بقول بعض الكلمات. الغريبة، والتي كان بعضها واضحاً.

"لا!! لا!! ضوء، نخلة، ضوء، حريق حريق".

لم يفهم أحد ما معنى تلك الكلمات التي كان لها ثقلها لدرجة أنها بدأت تؤثر علي، وولدت داخلي إحساساً بالانكسار والضعف، ودون أن يكون لي الخيار انسحبت من المكان.

استمرت الأحاديث بين مها وأمي في محاولة لإدراك كلام أبي، الذي بدأ يشتد تأثيره حيث ضعفت هالة طيفي، وشعرت أنني أسحب إلى الظلام. استمر أبي بقول تلك الكلمات دون توقف. كان صداها أكبر من احتمالي، كما أن لها تأثيراً سحرياً غامضاً مثل لعنة ما، وشعرت أنها تتغذى على قوتي وقد زاد اقتناعي بذلك بعد أن علا صوت أبي أكثر، لكن لم تأت تلك اللعنة من العبث. لقد شارك في إيصالها عن سابق إصرار.

"لكن لماذا يريد أذيتي بعد كل هذا الوقت؟ ألم يشف غليله عزف الألم على جسدي منذ الطفولة ؟!".

أخاطب الفراغ ولا أعلم كيف أتجنب السقوط في سواد مخاوفي مرة أخرى ترتد أفكاري على وقع الخطوات في الخارج، حيث تحاول أمي وزوجتي استدراك الموقف وتهدئة أبي الذي بدا بالفعل أنه أشبع نفسه وارتوى من الخوف الملتف على شبحي، وغرق في نوم عميق.

انقضى الليل، وأنا أبحث عن بقع النور المتناثرة في أرجاء الغرفة، ألاحق الأضواء المنعكسة للسيارات العابرة التي تتوغل داخل الغرفة، بطيفي الذي فرض عليه الانتظار كنوع من العقاب.

"كنت أحارب الشر وأنا أجهل مصيري، لم أفكر للحظة أنني سأعلق في سجن، وكأنه حكم مؤبد من الألم صدر ليرافق كل سني حياتي".

يغلب اليأس كل أفكاري، محاط بالظلام والقلق، التحف الستائر غطاء الفزع. حل الصباح أخيراً فتسللت إلى صالة الاستقبال بعد أن استعدت جزءًا من طاقتي، كان الجميع نياماً، أبي على الأريكة ومها على أريكة مقابلة التي يبدو أنها ظلت تراقبه حتى وقت متأخر. بعد أن أرسلت أمي للنوم في غرفة

الضيوف. ما أجمل رائحة القهوة الآن، رائحة الصباحات الهادئة الممزوجة بالحب، حيث لا أفسح المجال لليأس أن يتغلغل إلى قلبي، ومها تعد لي ابتسامتها أيقونة أمل لا ينضب.

"أشتاق لرائحة الليمون للخبز للغبار، العوادم السيارات للعفونة للدم. أشتاق لكل ما يشعرني بأنني حي. حي فقط !!".

لم أنه كلامي حتى بدأت ضربات قلب أبي تتسارع ثم فتح عينيه على اتساعهما محدقاً بي للمرة الثانية، كانت تلك العيون مضطربة تثير الريبة، أرادت إقناعي بأنها موجهة صوبي. وقد تفاعل طيفي معها على الفور خائفاً متراجعاً وباحثاً عن الضوء القادم من الخارج، لا أعلم أن كان السبب هو ذكريات الماضي أم شيئاً آخر. كل ما أدركه هو أن الطاقة التي بدأت تنمو داخل المنزل مؤذية للغاية، لا أستطيع احتمالها. ويجب علي تنبيه مها وأمي بأي ثمن، فهنا شر يلوح في المكان ومن الأفضل معرفة سببه والتخلص منه. حاول أبي النهوض متكئاً على الأريكة، متجهاً نحوي ومثبتاً عينيه علي، لكن هناك ما يمنعني من الاقتراب ومعرفة ما يريده كل خطوة يقترب فيها تجعلني

أختنق وأصغر وأتلاشى كبقع الضوء المتناثرة هنا وهناك اقترب أكثر وأكثر إلى أن وصل إلى أمام طيفي، فابتسم ابتسامةً ساخرة لم أدرك قصدها. كل شيء حوله كان يوحي بالريبة، ظل واقفاً بابتسامته القديمة الصفراء يستمتع بتعذيبي.

لم يقم بأي حركة فقد كان وقوفه بحد ذاته مؤلماً للغاية. ثم لا أعلم كيف انطلق الكلام ليعبر عن هلعي.

"هل تراني؟ هل هذا أنت فعلاً؟!!".

ظل صامتاً يبتسم وعيناه ترسلان تهديداً واضحاً، فحاولت التحدث مجدداً.

"أبي، لم تفعل هذا بي؟!! ألم يتعب شرك من محاولة القصاص؟!".

تراجع للخلف وكأنه مغيب تماماً عن الواقع، ثم اختفت ابتسامته ليسقط على الأرض بعدها؛ فتصحو مها على صوت سقوطه وتهرع لمساعدته.

"على مهلك سأساعدك، يجب أن لا تنهض قبل أن تتحسن".

أمسك بيدها ونهض لكنني شعرت بقوة كبيرة تأتي منه، كأنه يدعي التعب ويحاول التلاعب بي، وفعلاً ما أن جلس على الأريكة حتى عاود النظر إلي وإلى مها في إشارة واضحة إلى نواياه الخبيثة.

هدأ المكان. واتجهت مها لإعداد الفطور بعد أن أيقظت أمي، ثم اجتمع الجميع على مائدة الطعام.

"أرى أنك تحسنت".

خاطبته أمي في محاولة منها للاستعلام عن صحته، لكنه أبى أن يتحدث واستمر بتناول قطع من الخبز المحمص.

بينما تبادلت مها مع أمي نظرات الاستغراب والشك، فلم تستطع كبت مشاعرها لمحاولة معرفة سبب غيابه وظهوره فجأة بعد رحيلي.

"كيف علمت بوفاته، وأين كنت كل تلك السنين؟!".

لكنه لم ينطق بحرف أيضاً، الأمر الذي استفز مها وجعلها تتوقف عن الطعام وتكرر الأسئلة عليه. بينما حاولت أمي أن تخفف من حدة الأسئلة بسبب وضعه الصحي.

"لم لا تجيب؟ أين كنت كل تلك المدة؟ وكيف لك أن تتجرأ على القدوم وأنت تعلم مقدار الألم الذي سببته لجاسم؟!!!".

"اهدئي يا عزيزتي سيجيبنا بالتأكيد بعد أن تتحسن حاله".

استنكرت مها محاولة أمي إنهاء الحديث، لتنهض عن المائدة وهي تبدي انزعاجها الكبير، لكن الأمر لن ينتهي هكذا وسيظهر جانبه الشرير بالتأكيد؛ لذا عليها أن تحذر منه قدر الإمكان. عسى أن يغادر المنزل قريباً فأجمع شتات نفسي وأحاول إيجاد طريقة للخروج من هذه العزلة.

"أريد تجربة الحرية لمرة أخيرة، أريد التحرر من قيود الماضي، من ألم الماضي، إن الاعتياد على الألم نشوة مدمني العذاب، وأنا لست كذلك، منذ أدركت وجع الخسارة وقلبي فسحة سلام تنتشر كالسحاب".

كسرت مها سلسلة أفكاري حين دخلت لغرفتنا وأغلقت الباب بقوة، ثم استلقت على السرير وبدأت بالبكاء وهي تتمتم اسمي بحسرة. وأمي التي أعاد لها

أبي مشاعر الرهبة لم تتجرأ على الاقتراب منه، بل أنهت طعامها وتوجهت للمطبخ بحجة ترتيب بعض الأمور.

صار الجو مشحوناً للغاية، وكل قرر الانفراد بنفسه وحزنه، إلا أبي الذي صار غريب الأطوار لا يُؤْمَن جانبه، وباتت كل حركة منه مشبوهة وتوحي بأسلوب قديم مليء بالعنف والسيطرة، أما أنا فقلبي ينتفض حزناً على مها التي أتمنى أن أخبرها بأنني أشعر بها، وأحتضن جرحها، كم اشتهيت لو استطعت أن أحملها وأهرب بها من هذا السجن هذا المنزل، وهذا الحي الملعون.

لم تغادر مها الغرفة رغم محاولات أمي إخراجها، لقد كان شرطها أن يغادر أبي المنزل فهي لا تحتمل بقاءه، لكن شخصية أمي الضعيفة أمامه أجبرتها على الاستسلام لوجوده، لأنها لم تجرؤ على إخباره بوجوب مغادرته المنزل رغم ماضيه الأسود معها، رغم كل أشكال الصراع الجسدي والنفسي الذي كان يتفشى كالمرض في كيانها.

كان يشعرها وجوده الحالي ببعض الطمأنينة دون أن تدري أنها مشاعر مخادعة لا تمت للحقيقة بصلة، فقد كان وما زال الشر بعينه بالنسبة لي حتى ولو استغله كيان شرير للقيام ببعض الأمور الدنيئة، لقد كان منذ طفولتي أرضاً خصبة للعنف والأسى، لقد حييت وكبرت أبحث عن جاسم الصغير الألعاب مع شجر النخيل مع الطيور، مع الخيالات المصطنعة قدمت له أحلامي البريئة أضحية لجبروته وقسوته، فكيف يمكن أن أدافع عنه والندم الذي جاء به هو خدعة أخرى لا يمكن للعقل تحملها؟ استمر أبي بالتودد لأمي مجدداً كأنه يمارس عليها سحراً ما، فلم تعد تستجيب لطلبات مها المتكررة بإخراجه من المنزل، ولم تعد تبالي بنظراته الصفراء وابتساماته الخبيثة لي ولزوجتي، بل كانت مغيبة تماماً عن الواقع وتغرق شيئاً فشيئاً في دوامة خداعة. حتى جن جنون مها محاولة إخراجه بالقوة.

"يجب عليك مغادرة المنزل، لا أحتمل وجودك هنا غادر الآن ولا تعد!!".

"لا، لا تستطيعين منعي من زيارة ابني العزيز".

قال تلك الكلمات للمرة الأولى بصوت غليظ ساخر وأطلق بعدها بعض القهقهات معبراً عن تحديه لها. مما أثار غضبها أكثر فركضت باتجاه الباب وفتحته على مصراعيه.

"أقول لك غادر قبل أن أحضر الشرطة!!".

استمر بإطلاق الضحكات الساخرة ثم نظر إلي وقال:

"لا تستطيعين منعي من عزاء جاسم العزيز".

"بل أستطيع، انظر لي غادر قبل أن أخرجك بالقوة".

اتجهت أمي نحو مها لتخفف من حدة الموقف وتحاول تغيير رأيها حتى لا تخرج الأمور عن السيطرة أكثر، لكن قبل أن تصل إلى الباب، سار أبي خلفها وأمسك يدها بخفة وكأنه عاد فجأة لشبابه، ثم أوقفها وأغلق الباب بعد أن أسقط مها للخارج. بينما أمي وقفت مذهولة بما حصل لكنها لم تستطع أن تجادله. قد بان الغضب على أبي حين اتجه نحو طيفي، فضرب الجدار بكلتا يديه تعبيراً عن وحشيته، ومؤكداً عودة سيطرته على حياتنا. شتّتت تلك الضربة طيفي إلى أجزاء مبعثرة، فانسحبت إلى الغرفة

وأنا أشعر بالهلع، حتى المصابيح استجابت لخوفي وصارت ترتعد بشدة.

"ماذا فعلت أيها العجوز القذر؟!!".

بدأت مها بالصراخ في الخارج وطرق الباب، دون أن يهتم أبي لصراخها في البداية، حتى أمي هربت إلى غرفة الضيوف وهي خائفة للغاية.

استمرت مها بضرب الباب والشباك، وأنا مسجون في الداخل لا أقدر على عمل شيء، وليس بيدي حيلة.

"تباً لهذا العذاب الذي لا ينتهي، يا الله ساعدني، لقد تعبت من الألم أشتهي البكاء وأشتهي الموت لأنني جبان، نعم أنا جبان، لقد تركت خوفي يتحكم بمصيري وأنا عالق في فوهة بركان من الهلع، أحترق بناري وضعفي وأقرر الانسحاب بدل المواجهة".

كانت ضربات باب المنزل الشديدة تزيد انكساري ومن خلال النافذة المطلة على الشارع لا أحد يهتم كان الناس يعبرون من أمام المنزل وكأن مها مجرد سراب ولا وجود لصراخها ومعاناتها، فتابعت طرق الباب حتى تعبت ثم استدارت وانطلقت باتجاه مجموعة من الناس متجمعة على الموقف، كانت

تنوي خجلة طلب المساعدة من أحدهم لاقتحام منزلها الذي

احتله شيطان أبي، أو على الأقل طلب الشرطة.

"مرحباً أختي، هل أستطيع استعمال هاتفك؟".

كان الحديث واضحاً كأنها لم تبتعد عن المنزل وعلامات الغضب لا تخفيها نعومة وجهها الدافئ الذي اشتقت له، لكن تلك الفتاة لم تستجب لطلبها لتعيد السؤال عليها مرة أخرى:

"أختي، هل أستطيع....".

لم تستطع إكمال السؤال، حين نظرت إلى وجه الفتاة التي تبتسم بشكل مريب.

"هل يوجد خطب ما؟!".

حاولت مها الاستفسار لكن الفتاة تابعت تحديقها دون أن تنطق بكلمة، لم تعلم مها ما خطبها وقررت محاولة التحدث إلى أحد آخر، لكن قبل أن تطلب المساعدة تراجعت للخلف مذعورة. كان جميع الواقفين ينظرون إليها ويبتسمون الابتسامة ذاتها، وبدأت ضربات قلبها تعلو أكثر وشعرت باختناق أنفاسها، لكنها حاولت تمالك نفسها، وتوجهت إلى

الفتاة لتقطع الشك باليقين وتخرج من هذا الكابوس البشع، أرادت إمساك يدها لكنها لم تستطع، لقد كانت تلك الفتاة مجرد سراب، وكذلك بقية الناس الذين راحوا يضحكون معاً رافعين أيديهم للإشارة للمنزل كانوا يشيرون إلى النافذة إلى حيث طيفي.

"ما هي هذه اللعنة الجديدة؟ ما الذي يجري؟!".

توترت مها من هول ما يجري، فتراجعت للخلف محاولة الركض عبر الشارع هرباً من المنزل. كانت الدموع تملأ وجنتيها وهي تهرول هاربة من فظاعة المشهد، لكن على جانبي الطريق كانت الأبنية متشابهة تشبه منزلنا فقط، وعبر النوافذ يظهر أبي بعيون المراقب المنتظر، مما زاد شقاءها فتغمض عينيها وتسرع أكثر وأكثر. كانت عيناي تركضان معها مجبرتين على مشاهدة هذا الكم الكبير من العذاب. لا أعلم كيف حصل ذلك لكنني كنت فعلاً قطعة من ذلك الكابوس الذي توقف للحظة حين سقطت على الأرض والدماء تسيل من يديها.

"لا، لا هذا ليس حقيقياً!!".

صرخت وهي تمسح وجهها بالدماء والتراب أمام باب المنزل. وكأنها لم تغادره قط، حتى جموع الناس كانت نفسها لكن كل شيء يبدو طبيعياً، فهم يتبادلون الأحاديث بشكل عادي. لذا قررت النهوض مجدداً للتحقق من صحة ما رأت، وما أن حاولت الوقوف حتى فتح باب المنزل ليتم سحبها للداخل وهي تزحف وترتطم بالأثاث، ويغلق الباب بعدها.

"ستبقين في المنزل حتى أسمح لك بالمغادرة".

قال لها أبي بصوت غاضب وخشن للغاية، كأن وحشاً يتكلم داخله، وهي على الأرض تئن من أثر وحشيته، ثم ورغم إصاباتها السيئة نهضت إلى المطبخ وأخذت إحدى السكاكين وهاجمته.

لكنها لم تستطع الوصول إليه فقد كانت قوة ما توقفها في مكانها، لدرجة أني شعرت بالطاقة التي أمسكت بها وجعلتها تسقط السكين، ثم أجبرتها على الانحناء إلى الأرض.

وقبل أن تحاول أخذ السكين ومهاجمته مرة ثانية، خطر في بالها أن تلقي عليه بعض التعاويذ فهذه القوة لا تأتي من بشري، وخاصة من هذا العجوز الكهل، إلا

أن أمي التي كانت للمرة الأولى ترتجف خوفاً أمسكتها عن القيام بأي فعل، وأدخلتها إلى الغرفة.

"هل صدقت أنك تخلصت منى بهذه السهولة؟".

وجه حديثه إلى محدقاً بي بخباثة.

لا أريد تصديق ما أسمع.. لكنه هو.. إنه أدريان فعلاً!! لقد عاد ولا أعلم كيف لكنه عاد لينتقم وأنا عاجز عن مواجهته.

"سأقتلك أيها الشيطان!!".

قلت مع غصة في حنجرتي.

"حاول ذلك!".

لن أسمح له بالتحكم بي مجدداً، إنه صورة ضعفي الماضية جاء متلبساً بشبح أبي.

"يجب عليك أن تعيد التفكير يا جاسم، فليس لديك شيء تخسره الآن".

"ماذا تقصد؟".

"أقصد أن عليك أن تسلمني النور الذي يحميك، بملء إرادتك."

"حتى لو أردت ذلك فأنا لا أستطيع، لا يمكنني التحكم به أساساً."

"بل يمكنك ذلك".

"وإن نجحت.. ما هو ثمن ذلك؟!"

"سأغادر ببساطة وتتحرر أنت من سجنك".

"ومها وأمي!!".

"كل شيء سيكون على ما يرام".

لا أستطيع تصديقه، لكنني مجبر على ذلك فلا حول لي ولا قوة، لكن ما الضمانة على صدقه، هل يمكن لعاقل مؤمن أن يصدق شيطاناً؟

"أريد التفكير بالأمر".

قلت له ثم انسحبت كانت تلك هدنتي الأولى مع الجحيم. كان الشعور غريباً والشك يفتك بأفكاري.

"يجب أن أعرف نواياه الخبيثة".

يجب أن أحصل على بعض الوقت للتحكم في شبحي وقدراتي المخفية، فربما وجدت حلاً لأتحرر من هشاشة وجودي في الغرفة المجاورة، بينما تحتضن

أمي زوجتي وتمسح الدماء والدموع التي غطت وجهها، وتكاد تنقطع أنفاسها وتختنق بحزنها.

"اهدئي يا عزيزتي سنفهم ما يريد ونحاول إخراجه من المنزل".

"إنه شيطان لعين، إنه مصدر كل الشرور التي حلت بنا".

"نعم أعرف هذا لكننا لا نريد للأمور أن تخرج عن السيطرة".

"ماذا نفعل إذًا؟!".

"علينا استدراجه للخارج بطريقة ما".

"كيف ذلك وقد أظهر لنا قوته؟!!".

"إنه زوجي وأعرف كيف أخرجه لا تقلقي".

كانتا تهمسان بحذر تلك الكلمات، لكنهما لا تدركان أن أبي تمكن من سماع كل شيء، كما فعلت أنا فالصوت لا يخفى على عالم الأرواح هذا.

بالفعل كان أبي ينتظر ظهوري خارج الغرفة، ليكشف لي عن خططهما ويبدأ أدريان الذي احتل جسده بالضحك بسخرية.

"يجب علي فعل شيء، كيف أثير انتباه مها لهول ما يدور في رأسه؟".

لم أتمكن من حل معضلة الفراغ الذي يملأ جسدي، شبحي الذي يطوف منكسراً مهزوماً دون هدف، مجرد مراقب للألم أعتاش على الحزن. فعدت إلى عزلتي أنصت لتنهد مها وزفير أمي إلى الخوف المخيم فوقهما.

"ربما علينا أن نتحد ونطلق عليه تعويذة قوية".

"لا، لا أستطيع!!".

توقف الحديث وابتعدت أمي عن مها فجأة في تعبير واضح عن رهبة ما اقترحته، فهي لا تخشى مواجهة أي كيان شرير، لكن تشكله بصورة أبي هو ما يجعلها تضعف وتتراجع.

"لم لا تستطيعين؟!".

"لم يتسن لك لقاء زوجي لذلك لن تفهمي ما أشعر به، أنا أخافه جداً".

اقتربت مها منها مرة ثانية، وأمسكت يدها لتطمئنها ثم تابعت:

"أنا أفهمك تماماً، لكنه ليس من تظنين، بل هو وحش يتلبس صورته ويجب علينا الاتحاد لقتاله".

"أعرف ذلك لكن لا، لا أستطيع".

شعرت مها بالضعف لاضطرارها إلى مواجهة أبي وحدها، لكن لا سبيل لها سوى ذلك. ومضى الوقت وهي تتجول داخل الغرفة ذات الأثاث الجديد تقريباً، فهي لم تستعمل سوى لاستقبال الضيوف وكانت أمي أول الزائرين.

كان الزجاج المطل على الجهة الخلفية للمنزل مغبراً.

حيث تطل الغرفة على فسحة صغيرة مع بعض البيوت المتجاورة، وشجرة ليمون كبيرة أغصانها تتدلى على الأرض كأنها لم تُشذَّب منذ سنين، كأنها منسية مثلي، وبدأت مها التي أخذها الشرود والأفكار بمسح الزجاج ابتسامة أبي الصفراء التالية تعكس في داخلي صورة جاسم الصغير الذي يهرول مسرعاً ليختبئ من الرعب القادم بهيئة أب، لكنني تمالكت نفسي مواجهاً تبعات القرار الذي اتخذته.

بدأت الأغصان تتراجع عن باب الغرفة حيث مها لتتجه أمي نحوها وتفتح الباب مما جعلها تجفل وتتراجع إلى حيث النافذة.

"اهدئي يا عزيزتي هذه أنا".

"كيف أصدق ذلك وقد حاولت قتلي؟".

"لم أكن أنا أقسم لك، أريد مساعدتك للخروج من هذا المكان".

ترددت مها قبل أن تثق بهذا الكيان الشرير الذي تجسد بكل شيء حولها، لقد تجسد بالهواء والضوء والجدران، وحتى بالحياة خارج هذا المنزل، لكن أمي التي أعاد لها أدريان ملامحها اللطيفة كررت طلبها: "أرجوك.. لم يتبق الكثير من الوقت، لا أعلم كيف استطعت الخلاص من قيد هذا الشر لذا علينا الهروب بسرعة."

"لكن جاسم!!"

"جاسم ليس هنا ليس بعد الآن".

لقد شعرت بوجوده ولا أستطيع التخلي عنه...

أشعل إصرارها الكبير داخلي الكثير من الحسرة ليتني أملك القدرة على التعبير عن هذا الحب والأمل همست بتلك الكلمات وهي تعيد حساباتها لئلا تقبل على أمر لا يحمد عقباه فقد يفتعل أي شيء ليخيفها ويبقيها في الداخل، لذا ترددت كثيراً قبل أن تعيد الكرة إلا أن الصوت الذي صار أقوى زاد من فضولها، لتبدأ بعدها بتحريك النافذة بهدوء حتى استطاعت أخيراً فتحها. كان الضوء في الخارج مسلطاً على الليمونة ولم يكن يصل إلى النافذة فحجب رؤية ما يتحرك أسفلها، أخرجت رأسها قليلاً لكن لم تستطع رؤية مصدر الصوت، حاولت أن تمعن النظر أكثر دون فائدة، تغير اتجاه الصوت مما جعل جسدها النحيل يرتعش.

"أن يكون كيانك جزءاً من طيف يحيط المكان، أي أنك تتغلغل في تفاصيل الحدث وتعيش أحاسيس 11 الجميع "

لم أنته من التعبير عما شعرت به حتى ارتمت مها للخلف مذعورةً بعد أن أمسك شخص ما قدمها وأسقطها، لم أستطع تحذيرها فاصطدمت بالأرض

ومنعها الشعور بالدوار من إدراك ما حصل، فقد كانت أمي هي من سحبها إلى الداخل.

"بدأ تأثيره عليها!!".

لم أستطع تصديق ما يجري، فلم تكن أمي يوماً حاضنة للشر لتتبنى هذه الأفعال السيئة، رغم كل قسوتها السابقة لكنها كانت قسوة مبطنة بخوفها وضعفها اللذين عانت منهما طوال سني وجود أبي، ومنذ رحيله عادت الأمور للاستقرار بعض الشيء قبل أن تقرر الانعزال بنفسها.

وقفت أمي فوق مها كأنها منومة مغناطيسياً وهناك من يتحكم بها، ولم تحرك ساكناً أبداً، بل ظلت ثابتة بعيون متسعة لا ترمش شعرت بضيقها وألمها الذي كانت تحاول الخلاص منه دون فائدة، كانت عيناها تدمعان ويصطبغ كامل البياض باللون الأحمر بمنظر

يرهب القلب ويختبر الحذر الكامن في جدران المنزل. خطر لي أنها تستطيع أخيراً رؤيتي بعد أن احتل أدريان كيانها، فاستسلمت لأول فكرة خطرت لذهني المشتت لعل بعض الأمل يخفف انفصالي عن الواقع أردت لمسها والإحساس بها بخضوع وقبول تامين

كأنني أفتح قلبي لها لأوصل شوقي الكبير، حتى بدأت أستشعر طيفي كجزء حقيقي مني واستطعت التحرك نحو أمي، كان توتري يزداد كلما حاولت الاقتراب منها، لكنني تمالكت نفسي وقلت بصوت قوي واضح محاولاً إعادتها إلى الواقع.

"أمي.. انظري إلي أنا جاسم".

ولم تحرك ساكناً... أخشى أن أكون مخطئاً وأن أدريان لم يتلبس جسدها، لكن شوقي الأناني للحديث معها كان يرجح كفة مشاعري، واستهلكني الوقت فاقداً للذة البقاء كقصاصة من ذاكرة المكان، كانت الأفكار التي تراودني وتنتشر في أنحاء طيفي عبارة عن جرعة مسكن أخفف بها كمية العذاب المتجذر داخلي. أعادني أنين مها من شرودي، بينما ظهرت بسمة

مريبة على وجه أمي فحاولت التحدث معها ثانيةً: "لا أعلم أن كنت تدركين، وجودي، لكن إن وصلك صوتي أريدك أن تقاومي هذا الوحش.. أنا أعلم أنك أقوى من الاستسلام له".

أربكتني بسمتها المريبة بينما استمرت محاولاتها لإغلاق عينيها في محاولة لتخفيف الألم، وكان أبشع ما في الأمر أنني أدرك كل الألم، كل المحاولات، كل مواجهة تخوضها أمي ومها وحتى أبي، في سبيل النجاة أو القتل.

عاد الصوت من الخارج يحفر في الجدار بقوة كأنه يحفر في جسد مها، لم أستطع معرفة ماهيته لكن أنينها كان يرتفع كلما اقترب بينما بدأت تظهر على قدمها آثار لون أسود مثل الحرق، ربما سببت لها أمي هذا الشيء حين أسقطتها فقوة أدريان الجديدة مهولة وخطيرة ولا أعلم حتى الآن كيف أستطيع إخراجه والتخلص منه.

"جاسم يا صغيري، أعط أدريان ما يريد وعد إلينا".

دون أن تنظر إلي تكلمت أمي للمرة الأولى قائلةً كلاماً لا يشبهها.

"أريدك أن تنظري إلي لا تدعي أدريان يتحكم بك.."

انفجرت بالضحك بشكل هستيري، ثم جلست وأمسكت بعنق مها التي عادت لوعيها.

"هل تستحق هذه القوة التضحية بزوجتك العزيزة؟"

"أرجوك لا تفعلي ذلك".

زادت من شدة خنقها لمها التي بدأت بالمقاومة ومحاولة الإفلات من قبضتها القوية دون جدوى واستمرت بالضحك تريد استفزازي وإجباري على الخضوع بأي شكل، فبدأ الغضب يتغلغل داخلي بشدة الدرجة أن الجدران صارت تهتز من حدة مشاعري التي تخترق طيفي والغرفة، أريد إنهاء عذابي وعذاب مها وإنقاذها من قبضة هذا اللعين المتحكم بمصير العائلة كلها، وقلت:

"توقفي!".

لم أدرك كيف تم ذلك لكنني تمكنت من التوجه نحو أمي وإبعادها عن مها بقوة لم أشعر بها قبلاً، واصطدم جسدها بالجدار لتقف مرعوبةً ثم تفتح الباب وتخرج بسرعة إلى الصالة.

"جاسم! أهذا أنت؟".

كنت لا أزال مذهولاً بقدرتي على التحكم بشبحي إلا أن صوت مها الناعم أعادني إلى الواقع، واقع أبحث في تفاصيله عن بقعة ضوء تحيي الأمل:

"هذا أنا نعم.."

قلت بدفء يعتمر صوتي لعلي أعيد الأمان إلى قلبها المتألم.

"جاسم.. أرجوك أجب".

"أنا هنا.. ألا تسمعين صوتي؟".

استمرت بمناداتي دون أن تتمكن من إدراك وجودي بجانبها وحاولت لمسها لكنني فشلت كنت عبارة عن وهم، شبح، كذبة.

" إلى أي مدى أستطيع الاحتمال؟! أريد بعض القوة لأحل لغز هذا الألم يا الله".

انسحبت إلى الخلف منتشراً عبر أثير المنزل مهزوماً من عدم قدرتي على تخفيف ألم مها التي كانت تبحث عني في أنحاء الغرفة دون أن تجدني، فاكتفت بالجلوس على السرير والبكاء بحرقة، تلك الدموع التي زادت تعاستي وانكساري .

في المقابل، بينما يأخذني الفراغ عبر شقوق الضوء تجري في الخارج أمور أشد تعقيداً وشراً، فقد تيقنت أن أدريان يدرك وجودي إلا أنه لم يسمح لي بمعرفة ما يجول في فكره هذه المرة وكان الظلام مخيماً على مخططاته، أما أمي فجلست أمامه مخدرةً تماماً بعد أن سيطر عليها ثانية.

"لو أنها تصحو وتدرك أنه مجرد وهم يتلبس صورة أبي، وهم بلغ أقصى درجات الشر، لكانت قاومت سطوته عليها وقاتلت بكل جروحها القديمة لتحطم صورة الوحش المتحكم بحياتها على طول السنين".

ترمقني صورة الشر المتجسدة في أبي بنظرات حادة فأشعر بغضبه لكني لا أستطيع اكتشاف خطوته القادمة، ثم نهض مسرعاً وتوجه إلى باب غرفتي ولحقته أمي لتقف خلفه وتبدأ بإلقاء تعويذة ما، وقع كلماتها قوياً لدرجة أني شعرت المكان برمته يطبق علي، صارت الأبواب والنوافذ تهتز بينما انتقلت من باب إلى آخر تمارس طقوسها الغريبة، ولم تكد تنهي كلماتها حتى خرجت أغصان من الأرض، وانتشرت على الأبواب كأنها تؤكد إعلان المكان سجناً دائماً، وتقتل آخر فرص الخلاص.

عم الصمت على الصالة بينما عاد أبي إلى الجلوس أما أمي فكانت تراقب تلك الأغصان كأنها جزء منها.

- ستظل مسجوناً للأبد.
- ستخسر زوجتك ووالدتك قال أبي وكأنه أنهى الهدنة التي وضعها،

وصارت اللعبة أكثر تسلية له متلذذاً بضعفي قبل أن ينال مراده.

- حرر مها وسأمنحك ما تريد.

كانت كلماتي إعلاناً واضحاً للاستسلام فلا يوجد حل آخر غير الخضوع بعد أن عرف نقطة ضعفي، ولا عذاب أشد مما أعانيه الآن.

نهض أبي مقترباً من طيفي وقال مطبقاً يديه على الجدار:

- وإن كانت تلك خدعة ما؟
- ليست كذلك.

أنا المعروف بترددي الدائم لم أثق بقرار في حياتي كما وثقت بقراري هذا، محاولاً تخطي الشعور القاتل بالندم لما تسببت به من ألم لزوجتي الغالية، وكانت ابتسامة أبي الصفراء التالية تعكس في داخلي صورة

جاسم الصغير الذي يهرول مسرعاً ليختبئ من الرعب القادم بهيئة أب، لكنني تمالكت نفسي مواجهاً تبعات القرار الذي اتخذته.

بدأت الأغصان تتراجع عن باب الغرفة حيث مها لتتجه أمي نحوها وتفتح الباب مما جعلها تجفل وتتراجع إلى حيث النافذة.

- اهدئي يا عزيزتي هذه أنا.
- كيف أصدق ذلك وقد حاولت قتلي؟
- لم أكن أنا أقسم لك، أريد مساعدتك للخروج من هذا المكان.

ترددت مها قبل أن تثق بهذا الكيان الشرير الذي تجسد بكل شيء حولها، لقد تجسد بالهواء والضوء والجدران، وحتى بالحياة خارج هذا المنزل، لكن أمي التي أعاد لها أدريان ملامحها اللطيفة كررت طلبها:

- أرجوك.. لم يتبق الكثير من الوقت، لا أعلم كيف استطعت الخلاص من قيد هذا الشر لذا علينا الهروب بسرعة.
- لكن جاسم!!
- جاسم ليس هنا ليس بعد الآن.

- لقد شعرت بوجوده ولا أستطيع التخلي عنه...

أشعل إصرارها الكبير داخلي الكثير من الحسرة ليتني أملك القدرة على التعبير عن هذا الحب والأمل مثلها.

- إنه مجرد وهم يا عزيزتي أنا أيضاً أعيش صدمة فراقه لكن يجب أن ننجو لنخلد ذكراه الجميلة.

لم تتلفظ مها بأي كلام بعد ذلك، بل جلست في مكانها والدموع تنساب على خديها وتحرق كياني الهائم في الفراغ.

- هيا بنا أرجوك.

أربكني أسلوب أمي اللطيف رغم مكره ومعرفتي أن أدريان يتحكم بتصرفاتها، حتى مها التي كانت مترددة أخذت بيدها ونهضت، ثم انطلقت معها إلى الصالة بعد أن فتح لها أدريان باب المنزل للخروج.

- هل أستطيع الخروج حقاً؟!

سألت مها ملتفتةً إلى أبي الذي أومأ برأسه بالقبول فسارت بخطوات متسارعة تريد الخلاص والهروب لكنها توقفت بعد عدة خطوات وعادت مسرعة إلى غرفتنا وفتحت أحد أدراج الخزانة الصغيرة وحملت بيدها صورة تجمعنا وانطلقت مجدداً وهي تنظر إلى

الخلف، لكن أبي وأمي توقفا فجأة وقد تغيرت ملامحهما قبل أن تصطدم بشخص واقف على باب المنزل وقد حجبت الشمس خلفه ملامحه.

مع تراجع زوجتي للخلف فاحت رائحة المسك من ثوبه الأبيض، لكن حين تقدم بضع خطوات أخرى اختفى بياض هذا الثوب وعكس سواد صاحبه، هذا السواد النابع من داخله أشعل الغضب في قلبي ومنعت نفسي بصعوبة من مهاجمته وتمزيقه، لقد كان سبب البلاء الأول في حياتي.

- من أنت؟!

سألته مها التي شعرت ببعض الطمأنينة رغبة منها بالاحتماء به من الشر الذي يقبع خلفها.

- أنا حسين، خال جاسم.

لقد اعتنى بنفسه جيداً ولم يستطع الشيب إخفاء ملامحه التي توحي بالنشاط والقوة، أما مها التي وقعت بين نارين فجمدت في مكانها تنتظر حصول معجزة ما تعجل في هروبها، ولم أستطع القيام بشيء فقد عادت لي مشاعري السابقة واعتراني الخوف والقلق من جديد، وقطع خالي الصمت قائلاً:

- ما الذي جاء بك إلى هنا؟

احتمت أمي خلف أبي، بينما تابع خالي حديثه:

- لقد وصلني أنك لم تمت أيضاً، لكن لم أتوقع أن تكون أختي جزءًا من هذه المسرحية.

تغيرت نبرة صوته وبدأ بالصراخ حين توجه نحو أبي الذي أمسك نفسه عن الكلام:

- لقد حملتني ذنب جاسم طوال سنين!

لم أفهم مقصده وسبب هجومه الشرس على أبي الذي قرر التزام الصمت مشيحاً بنظره عن خالي بعد أن وصل به الحد للإمساك بوجهه وإجباره على النظر إليه.

- لست أفضل منهم، لقد قص لي جاسم ما تسببت به من شقاء.

قالت مها بنبرة حادة، فهي تعرف كل شيء عن الجحيم الذي سببه لي.

- لا لست كذلك لكن والده أجبرني هذا الشيطان الذى يقف أمامك.

ارتعشت المصابيح التي عكست توتري الكبير لما يقوله، ولم أرد تصديقه رغم مواجهته الحادة لأبي، لكن سكوت الأخير بدا كأنه إقرار بالذنب.

- لقد أجبرني على افتعال تلك الأمور أمام أختي وتوريط جاسم.

قال خالي ذلك لكنه لم يتمكن من إتمام كلامه، فقد دفعه أبي إلى الخلف بقوة أسقطته على الأرض، وركضت مها لمساعدته لكن أبي تقدم نحوها وأجبرها على الابتعاد مستخدماً شر أدريان، ثم رفع خالي الذي دب فيه الرعب تلك اللحظة، حيث لم يتوقع أن يتحول كلامه المجازي عن الشيطان إلى واقع. وقال مرتعشاً من الخوف:

- ماذا .. ماذا يحصل؟!

تدخلت مها مجدداً لإنقاذه وحاولت إلقاء تعويذة ما تجبر أبي على إفلاته، إلا أن ضعفها الشديد لم يسمح لها بذلك، ولم أستطع حمايتها أو تزويدها بالقوة المقاومة شره.

- لقد سمحت لك بالمغادرة، اخرجي الآن قبل أن أغير رأيي.

خاطبها أبي بينما انبعث دخان أسود فوقه مثل غمامة تكتنز الشر وستمطر قريباً وجع سنين، أما خالي المرتعد خوفاً فقد أغمي عليه، ليفلته أبي أخيراً ويسقط على الأرض.

- نعم لقد عقدت معه صفقةً في الماضي، وانتظرت بعدها سنين طويلة قبل أن أجد جاسم مجدداً.

ثم وجه كلامه إلي وهالة الدخان تكبر أكثر لتعكس غضبه المتزايد

- لقد حملت هذا النور داخلك منذ طفولتك، كنت طفلاً غبياً طاهراً للغاية!
- ما ذنبي في ذلك؟ ما الذي اقترفته لأحرم من طفولتي ؟

كانت كلماتي ترتجف، لكن الحزن الجاثم على ذاكرة طفولتي كصندوق موسيقى محطم، دفعني للمتابعة.

- ما دور خالي فيما حدث؟

أخذ وقته في التفكير بالإجابة، وعيناه تتابعان خالي الفاقد الوعي والممدد على الكنبة، ثم قال:

- لقد أغريته ببعض المال والنفوذ ليخلق حججاً أمام والدتك فأتمكن من إضعافك وسجنك، وانتهت مهمته ما أن حاول والدك التكفير عن ذنبه بعد حادث السيارة والارتحال عن الحي.

اشتهيت تلك اللحظة أن أمزقه لأشلاء، وصعقت من حجم الشر الذي دمر منزلاً بأكمله، شر سيطر على عائلة كاملة وأسقط أحلامي الصغيرة التي كنت ألملم قصاصاتها وألصقها على ذاكرتي المشوهة.

تمعنت في تفاصيل المكان المدمر حولي والحال التي وصلت بي وبزوجتي وأمي، لأستعيد مجدداً السيطرة على مشاعري.

- جاسم هنا أليس كذلك؟

قالت مها وهي تنظر إلى أبي بعد أن تنبهت لبقائه مواجه الجدار والهالة يتغير حالها معبرة عن تقلبه واضطرابه، لكنه لم يجب وعاد إلى خالي ووضع يده على رأسه مطبقاً سحراً ما، وبالفعل تغيرت ملامح خالي حيث احتل البياض لون عينيه كأنه امتص ذاكرته ليصحو بعدها من غيبوبته وينهض متجاهلاً

كل ما يجري حوله وينطلق إلى الباب خارجاً من المنزل

هكذا وبكل بساطة كأنه مسح من تاريخ هذه العائلة، كأن من قاده حظه العاثر للعبور بهذا المنزل أصبح ورقة تالفة سقطت من شجرة الخريف المريضة.

أدركت مها أنها حوصرت مجدداً داخل المنزل حيث أغلق الباب مرة ثانية، لقد كانت سجينة مثلي لا خيار لها إلا المقاومة، لذا وبكل ما تحمل من عذاب ومن دموع أرادت فتح الباب والخروج، لكن دون جدوى. فقد أحكم الشرير إغلاقه معلناً عدم انتهاء اللعبة.

- دعني أخرج أيها الشيطان!

قهقه ضاحكاً واستلقى على الكنبة متلذذاً بمعاناتها. ليتني أستطيع إخبارها أنه يتغذى على الخوف والألم لكن لا حول لي ولا قوة، لقد ضاقت الجدران بشبحي وعاد ذلك الصوت يحفر في الجدار الخارجي.

"أعبر كالظل، لست حيّاً ولا ميتاً، فراغ على أهبة الاستعداد للتلاشي والعودة بلحظة، تحركني أصابع الفزع كالدمية، وأحاول قطع الحبال المتحكمة بمصيري بأسناني المتخيلة"

عاد إلي الإحساس بتفاصيل طيفي تدريجياً، بعد أن قررت مها أن تلتصق بالجدار، وأدريان يتلاعب بتفاصيل المكان ويخلق صوراً من الماضي الجميل على شكل لوحات معلقة في الصالة، يريد زيادة بؤسي أكثر.

ازداد إحساسي بتفاصيل المكان لدرجة أنني تمكنت من إسقاط تلك الصور المعلقة وتحطيمها، وشعرت بقوتي تتزايد فحاولت جمع قطع الزجاج وقذفها نحو الشيطان لكنني لم أفلح إلا بتحريكها قليلاً وفشلت في النهاية، وكان ما جرى كافياً لتنبيه مها فانطلقت تبحث عني مجدداً.

وضعت رأسها على الجدار تحاول إيجاد أي شيء يثبت صدق إحساسها، ووقفت تتحسس الشقوق وفي عقر قلبها تعلم أنني هنا، فما أن لمستها حتى ارتعش طيفي وانعكس ذلك باهتزاز النوافذ والأبواب، فتابعت ما تفعله وفي كل مرة تزداد الرعشة قوة، وما أن وصلت إلى الباب وهي تهمس باسمي، بادلتها الكلام للمرة الأولى:

- أنا هنا يا مها.

تراجعت إلى الخلف من رهبة ما حدث، ثم عادت تلمس الباب لتتحقق مما سمعته، وتابعت حديثي معها:

- اشتقت مثلك لتصديق أنني حي.

لم تستطع كبت بسمتها المختلطة بالكثير من الأسئلة، والدموع تنهمر على خديها بغزارة، كما أنها لم تستطع نطق جملتها القادمة، حين جاءت أمي من خلفها مسرعة ووجهت ضربة قويةً على رأسها أفقدتها الوعي، لتنهار بعدها وتسقط غارقة في دمائها.

"حين يعتاش الألم على استسلامنا وعلى خضوعنا التام لشهوته تصبح النجاة أشبه بالمعجزة، وحيث نغلق بأنفسنا كل الأبواب المتاحة للهرب، لن يتبقى لنا سوى اللحظات التي تتدفق دفعة واحدة قبل أن تمحي تفاصيلنا من الوجود، ثم تلملم بقايانا كقطع مرآة مكسورة ومنسية كالهشيم".

تتنازع الأفكار داخل فراغي الكبير، بينما تقف أمي بعينيها الدمويتين المتوسعتين فوق جسد مها تنتظر إشارة أدريان للقيام بما يجب، حيث يعبر خيط

الدماء أسفل الباب متجهاً إلى الغرفة حارقاً الأغصان المتشابكة التي كانت تقف سداً يحول دون الوصول إلى الداخل.

أعلم من ضربات قلبها أنها بخير رغم ألمها الشديد رغم ذلك بدأ الغضب يتملكني وحاولت استجماع طيفي للقيام بما يلزم لإنهاء وجود ذلك الشيطان اللعين.

- سأدمرك أيها اللعين!!.

صرخت محاولاً تحريك الأشياء مجدداً لإصابة أدريان، دون أن أفكر بنتائج غضبي على أبي، فهو في نهاية الأمر متجسد بصورة الوحش، وانعكاس لسني عذابي الطويلة، التي بادلها أدريان بالقهقهة مجدداً؛ ناسياً وجوب الاحتفاظ بهدوئي الذي بدأ أخيراً يجدي من خلال التحكم بطيفي، لكن ليزيد الشيطان تعاستي ويضعفني نهض أبي واتجه نحو المصابيح الباقية المضاءة، ثم قام بتحطيمها الواحد تلو الآخر ليعم الظلام تماماً على المكان، ويصبح هذا المختل المتحكم الوحيد بمصيري، بينما تستمر أمي

بالتحديق بجسد مها كأنها وحش مفترس تنتظر الإشارة للهجوم.

كانت خطوتي القادمة ردة فعل مفاجئة للجميع فقبل أن يصل أبي إلى آخر مصباح مضاء بدأت جدران المنزل تهتز لتخرج من الشقوق خيوط من النور تمسك به وتطرحه أرضاً، كنت متحكماً بهذا النور تماماً فقد شعرت وأنا أحمل جسد أبي أنني قادر على تمزيقه بسهولة، لكن اكتفيت بإبعاده قبل أن أتوجه نحو مها وأحيط جسدها بهالة من النور أجفَلَتْ أمي وأبعدتها عن الباب، ثم حملت مها التي كانت مستسلمة لتعبها ونزيفها، وفتحت الباب بعد أن احترقت كافة الأغصان المحيطة به وأدخلتها إلى الغرفة، وأقفلت الباب مجدداً في وجه أبي وأمي اللذين كانا واقفين يشاهدان أطراف النور وهي تعبر في الشقوق وعبر أثير المكان.

جن جنون أبي واتجه نحو الباب لفتحه، لكن النور المحيط به أحرق يده فصرخ من الألم، وأعاد الكرة مرة أخرى دون جدوى مجرباً رفقة أمي كل الوسائل لاقتحام الغرفة.

- أنا هنا يا عزيزتي، لن أتخلى عنك.

أقول لمها بينما أمسك يدها وقد تشكل النور على هيئة جسدي السابق منعزلاً تماماً عما يجري في الخارج، في تناغم أشبه بالموسيقا ترتبط به ضربات قلبها بفيض من النور المحيط حولها، هذا النور الذي بدأ يتسرب عبر أوردتها كالسابق، ليزيد من عذوبة اللحن داخل صدرها؛ حيث بدأت أنفاسها المشاركة في سمفونية جمالها الرائع.

تابع أدريان محاولاته بائساً دون جدوى، وازدادت وتيرة ضرباته على الباب فأخرجني من سعادتي المؤقتة، ثم قرر استخدام جسدي أمي وأبي لتحطيم الباب، حيث جعلهما يتطايران في الهواء ثم يقذفهما نحوه، حتى أني تمكنت من سماع صوت تكسر عظامهما قبل أن يعيد المحاولة مجدداً.

أعلم جيداً أن استمرار الشيطان بهذا الأمر سيودي بحياتهما، ورغم ألمي الكبير لحالهما وخاصة أمي التي تهشم وجهها، إلا أنني لا أستطيع السماح له بالدخول.

- هذا يكفي!!.

استجمعت صوتي وأطلقت صرخة جعلت المكان كتلة من الضوء مما أجبر أدريان على التراجع، لتسقط أمي دون حراك وقد تشوهت ملامحها الهادئة بفعل الدماء التي أخفت صورتها، أما أبي الذي تكسرت عظام جسده فتراجع للخلف كأن شيئاً لم يكن، لا أعلم كيف احتمل كل هذا الألم فقد جلس مجدداً على الكنبة ينظر إلي دون أن يتلفظ بكلمة.

خفت شدة النور حين عدت إلى الغرفة، ولم يحاول أدريان مجدداً استخدام أحد أساليبه القذرة للدخول ليعم الهدوء أخيراً على المكان وأجلس قبالة مها وهي تغرق في سلام نومها، كأنها تشحذ أحلامها سكاكين لطعن الواقع الذي سلب منها سعادتها.

عاد الصوت ليحفر في جدار غرفة الضيوف مجدداً، كان يعلو أكثر وأكثر محاولاً الدخول ولا أعلم حتى الآن ماهيته، وقد رافقه ألم غريب يمزق السكون الأخير.

" استعدت بعض كياني، يجب علي استغلال هذا الأمر وإيجاد وسيلة للعودة، فرغم ما يجتاحني من سطوة وقوة لكنني أشتاق للشعور بجسدي مجدداً".

قاطعت أفكاري همسات تطوف حول المكان، مها غائبة عن الوعي تماماً وفي الخارج لا تزال أمي على هدوء تفاصيلها مرتميةً أمام الباب، بينما يضع أبي يديه على رأسه وقد صارت عيناه صفحات بيضاء غير مفهومة، تتحرك شفتاه كأنه يحدث نفسه ويستنجد بقوى الظلام لتفتح له آفاقاً جديدة من الشر، وفي الخارج أسمع حسيس تلك الأصوات وهي تختلط برياح اشتدت فجأةً، ثم بدأت تحرك أغصان الليمون وأوراق النخلة العالية، كان المشهد واضحاً عبر زجاج النافذة الملطخة بالذكريات ببصمات أصابعي التي تستجدي النور لمعانقة الحياة والمارة والسيارات لاستنشاق رائحة الحزن وبقايا كاوتشوك سيارات المراهقين المسرعة، لإدراك الوجود كما هو دون أي تلميع أو مناورة مع الخوف.

" ماذا يجري ؟!!"

سعيداً بتفاصيل الأحاسيس التي تولد داخل طيفي قلت في نفسي وقد اعترتني الدهشة والرهبة فالصوت الذي يحفر في الخلف صار يأتي من جميع أنحاء المنزل من النافذة والباب والسقف، كأن يداً ضخمة امتدت لتمسك البيت وتحاول إزالته من الوجود،

فلم يبق لأدريان الكثير من الخطط الإجباري على الخضوع سوى بتحطيمي تماماً، لكن قوته الجديدة تؤثر علي بشكل أكبر من السابق.

استمرت تلك الأصوات بالارتفاع والريح تصدح خارجاً، في عتمة الليل الثقيل الذي لا ينقشع كأنه قبر حفر لي ولجميع أحبتي ليرمينا داخله في اختبار النجاة والتكفير عن خطايا ليست من فعلنا، ومع هدير الهواء المرتفع ظهرت عبر الطريق المقابل لنا خيالات أغلب الظن أنها لأناس يتجهون نحوي، بان ذلك من عيونهم البيضاء المشعة المصوبة علي، وخطواتهم التي تضرب على الأرض بكل قوة جعلت النافذة تهتز ومع اقترابهم بدأت مها تستعيد وعيها وهي تنادي باسمي.

- جاسم!!

لم أستطع الإشاحة بنظري عن المشهد المرعب خارجاً لأنظر إليها، يزداد وقع ضربات الأقدام القادمة كأنها ضربات قلب خائف لتزداد على إثرها الأعداد بشكل أكبر كأنها أمواج من الأشباح المحيطة المنتظرة وما أن صار المكان محاصراً تماماً بتلك

الخيالات التي تقدح شراً، توقفت الرياح تماماً لينهض أبي عن الكنبة بعدها ويتجه نحو الباب ويفتحه على مصراعيه للوهلة الأولى شعرت أنه يخطب بتلك الجموع التي بدت خاضعة له تماماً.

- ماذا يجري؟!.

قالت مها وهي تنهض رغم تعبها وآلامها متجهةً نحوي كأنها تراني بالفعل.

- ابقي مكانك.

لم أستطع ايقافها عن متابعة التقدم نحوي، أشعر بضربات قلبها وهي تخفق بقوة تحاول الوصول، مما جعلني أترك ما يجري في الخارج وأتجه صوبها، لترتمي على أطرافي التي أصبحت أكثر تحكماً بها، ثم حضنتها محاولاً تهدئة قلقها.

- يجب أن تبقى في السرير.
- لكن كيف حصل هذا؟.

لا أعلم يا عزيزتي لكن منذ قتالي الأخير مع الشيطان صرت هكذا، ولم أستطع إخبارك رغم محاولاتي المضنية.

- كنت أعلم أنك هنا.

قالت والدموع تغص في عينيها، فقد كانت الكلمات أشد من قدرتها على التعبير لكنني لا أستطيع تخفيف وقع الحقيقة، كل ما أرجوه هو انتهاء هذا الأمر وعودة الزمن للخلف لأعوض آثامي المرتكبة مع الحياة، وأعود للعيش باستسلام تام للفرح بعيداً عن طفولتي السوداء.

لم تستمر تلك اللحظات الهادئة لوقت طويل، رغم حاجتي الكبيرة لها لأن الأشباح في الخارج بدأت تتمرد على الصمت زاد معها شعوري بتلك الأيدي التي غدت تحفر في جميع أنحاء المنزل، ومع ظهورها أمام المنزل مع بعض أضواء السيارات العابرة المساعدة، بان لي شكلها تماماً.

- إنها شياطينه!.
- أي شياطين؟.

تستفسر مها محاولة استيعاب الحقائق والاقتراب من النافذة للنظر لما يجري.

لا، لا تقتربي من الزجاج فالوضع غير آمن.

حاولت نهيها عن الاقتراب لكنها عنيدة كعادتها بإرادتها الصلبة التي لا يحيدها شيء عن المواجهة

فاقتربت تنظر بحذر إلى المنظر المهول لتلك الأشباح إضافة للشياطين التي رافقتها وبدأت تحفر في الخارج، فتقول مها مستغربة تصرفها:

- لم لا تدخل عبر الباب ببساطة؟
- هي تعرف قوة طيفي، وأنني وبطريقة ما أستمد طاقتي من المنزل، لذلك لا تستطيع الدخول.
- أتقصد أنها تريد إضعافك عن طريق تهشيم المنزل؟
- نعم تماماً .

بمخالبها الطويلة ووحشيتها السابقة عادت الذكريات السيئة معها، عاد طعم الدماء ورائحة الموت تملأ المكان، بينما تستمر في النبش في الجدار وتنشر رائحتها العفنة في المحيط، ولا أعلم أن كانت تستطيع فعلاً اختراق حاجز النور لكن استمرارها بفعل ذلك الشيء مرعب للغاية، خاصةً مع وجود هذا العدد الهائل منها.

باشرت أفواج الأشباح الأخرى التي حاصرت المكان بالدوران حول المنزل، وممارسة طقوس غريبة بقيادة أدريان، فأخذت تلتف مثل إعصار يريد اقتلاع

السكينة من جذورها، يريد محو الحب والشغف الذي حمل قلبي لسنين طويلة دون أن يسقط أو يتعثر.

ثم جاء الصوت ليرافق الحركة المريبة لهذه الأشباح بدا هديره مرعباً حرّك الريح معه بقوة جعلت أغصان أشجار الليمون اليانعة تتكسر غصناً تلو الآخر، لتشتد بشكل أكبر وتحرك شجر النخيل كأن يداً غاضبة تمسك بساقها تريد اقتلاعها، وجعلها سلاحاً يدمر جدران المنزل، فأدريان على معرفة تامة بالعلاقة القديمة التي تربطني بالنخلة، حين كنت أعلق أحلامي عليها وأستمد قوتي منها.

- عليك التراجع إلى الخلف يا عزيزتي لا تخاطري بوقوفك قرب النافذة.
- لكن ماذا يجرى؟
- لا أعلم، لكن أدريان يجيش سواد قلبه وكائناته الظلامية ضدنا.

لم تنطق مها بأي كلمة، بل وضعت يدها على جسدي المضيء في محاولة لتحسس النور وطمأنة قلبها، هذا النور الذي اشتعل ضياؤه في الغرفة.

"أشعر بتفاصيلي بشكل أوضح، لكن أجزاء مني ما زالت محاصرة داخل الجدار، وبالتأكيد حين أتمكن من النجاة والإفلات منها سأستعيد جسدي الحقيقي"

لا أعلم لم خطرت في بالي تلك الفكرة الغريبة لكنني أعتاش على ذاك الأمل، خاصةً أن الخطر في الخارج يتخطى حدود العقل، فالأشباح تقطع سبل النجاة وتعزل المنزل عن الحي بأكمله، والسيارات العابرة التي تلقي ظلالها على مدخل الباب تشارك حفلة اللا مبالاة.

ومع اشتداد حالة الجنون والتوحش التي يبثها أدريان في جيشه، تغيرت حالة الأشباح وأخذت دور الوحوش محاولة تحطيم الجدار.

"لا يتعب هذا الكيان الشيطاني من تجريب كل السبل لإجباري على الخضوع، حتى غدا يصور لي الأشباح كوجوه بعض الناس التي كنت أتجنبها في السابق، بشخصيتي الضعيفة الساذجة التي تخشى مواجهة مخاوفها ورد التنمر حين قايضت المواجهة والقوة لأتسول بعض السلام"

حين تفقد شغف المقاومة ويصبح الانتظار سكاكين تطعن الوقت ستتغير وجهة نظرك للأمور، ليست الفكرة في تقبلك لضياع حلمك والتنازل عنه ثم فقدان متعة القتال لأجله، كما أنها لا تتعلق بأن لا شيء لك لتخسره؛ لأنك ستتحسر بعدها على كل اللحظات التي كان يمكن فيها إنقاذ روحك أو روح عزيز عليك، بل لأن كل ما يجري ليس وليد المصادفة فقد تم التخطيط له منذ ولادتك، حين قرر غيرك أن دورك في الحياة يقتضي أن يجري هكذا.

كاد النور يخمد مع كل تلك السوداوية التي اعتقلت ذهني لولا تدخل مها التي لا تمل من القتال، حيث قامت باحتضان طيفي بقوة كأنه جسد حقيقي؛ بعد أن شعرت بالضعف يسيطر على تفاصيلي ويتيح للشياطين أن تجد فرصة لاستهلاك ما تبقى من أمل.

هي تفهم كل شرود يصيبني وتعلم أنني أبحث دائماً عن خطاب أبرر فيه ضعفي، كنت أيضاً دون قصد مني أعتاش على طيب نواياها ومحاولاتها تسليط الضوء على جوانبي القليلة الجيدة.

- أنا بجانبك، لا تستطيع الاستسلام الآن.

امتدت أطراف النور لتحيط بها مجدداً وتعتنق هدوء ملامحها تميمة تمكنني من العودة لحقيقتي دائماً، وفي الخارج تعبر تلك الأشباح عن سخطها ووحشيتها التي صارت تتقمص أوجه زملائي في العمل تارة، حيث يظهر سعيد مطلقاً ضحكات ساخرة مدوية يهزأ بي كعادته في اقتناص أي فرص تسنح له لزيادة بؤسي، وتارة تلك الحسناء التي تظهر فتنتها تنوي دفع غرائزي لأقصى درجات الشهوة، قبل أن يظهر باقي زملاء العمل بعيون تخرج منها ألسنة النار بينما يضعون جسدي على الأرض ويمزقون اللحم بأسنانهم.

كان الدم يسيل على وجوههم وهم يتلذذون بتقطيع أطرافي التي تحاول المقاومة، ثم ينتقلون إلى قضم رقبتي حين أبدأ الصراخ، ويتكرر المشهد أكثر من مرة وأرى جسدي في أكثر من موضع، وتجتمع فوقي تلك تنصت إلى مخاض التفاصيل الغريبة التي باغتت تحصيناتك القوية.

- ما هذا الضوء؟

مع صوت مها المتعجب من كتلة النار والضوء في الخارج، انفجر المكان واقتلعت الجدران من مكانها هناك حرارة تلهب وجهي وللمرة الأولى أرى يدي وقد أدماهما الانفجار حيث شظايا الزجاج تتوسل مكاناً فارغاً لتمزقه، ولم أشعر بالألم رغم احتراق ونزف باقي أجزاء جسدي، فقد صعقت من حجم الدمار الذي حل بالحي بأكمله انطلاقاً من منزلي وصولاً إلى المنازل المحترقة المدمرة الممتدة على جانبي الطريق.

"ذهني مشوش، سأعبر هشيم هذه النار لأجد ملاذاً آمناً، لا أشعر بشيء ولا أعلم ما جرى"

أحاول استجماع أفكاري وأنا أزيل بعض الحجارة من أمامي، هناك جثة تقبع خلفي لا أعلم لمن تكون لكنها أنثى ذات تفاصيل ناعمة تنام كأنها تغرق في حلم طويل، لم أرد تحريكها كي لا أقلق الموت المحيط بها.

وجدت طريقي بين الحطام وأشجار النخيل المشتعلة، التي حفرت النار عليها وجهاً محترقاً تغلب عليه ملامح الطفولة والشقاء، ثم انطلقت إلى الشارع حيث تصدع الطريق وانشق في عدة مواضع

مترافقاً مع دخان أبيض خرج منه كغمام ضل طريقه وأمطر الأرض لعنة أزليةً، أما البيوت المحيطة فقد نهض ساكنوها يجمعون الخشب المشتعل ثم يلقونه بعضهم على بعض، ويهرولون ويضحكون بغرابة رغم أن النار كانت تحرق وجوههم وتمحي تفاصيلهم لتغدو وجوههم فارغة تماماً من أي ملامح، مجرد ستارة أسدلت لتخفي ما يقبع تحتها من مشاعر.

أسير بدون وجهة وأنا أزيل قطع الزجاج المغروز في يدي، لم أعد أشعر بحرارة النار تلسع وجهي الذي أستطيع تحسس تفاصيله، فتتعثر أصابعي ببعض شظايا الزجاج الأخرى من أثر الانفجار، ومن بعيد يبدو المنزل الذي غادرته للتو مألوفاً وقد خمدت ناره كما يظهر لي شبح محاط بهالة من النور بدا أنه يتابع خطواتي لم أعره أي اهتمام وتابعت طريقي نحو المجهول.

" من أكون؟!".

أتساءل عن هويتي ويزداد التشويش داخل ذهني للأشياء المترامية على جانبي الطريق الذي يهتز بين

الحين والآخر كأن زلزالاً يسن أسنانه للانقضاض على ما تبقى من حياة.

"لم أنا هنا؟!".

متعطشاً للوصول إلى دليل يسعف شغف أسئلتي انطلقت على هدى أنوار بعيدة، لعل هناك من يؤنس فقدان حواسي، وتعود الأرض للاهتزاز مجدداً لكن هذه المرة كانت أشد وطأة جعلتني أنخفض وأتشبث بحجار الرصيف المقتلعة حيث أنا.

"أنت!!".

صرخت بينما يجري طفل من أمامي لا يأبه بالهزة، حاملاً في يده دمية محترقة، ويطلق صدى صوته ضحكاته وهو يفتح أحد الأبواب التي تشتعل فيختفي. في الداخل.

"نعم، كان صوته مجرد صدى صوت قادم من بعيد رغم عبوره أمامي، لكن ما سر سعادته والشقاء يحتكر جسده ليظهر معاناته على الملأ؟"

نهضت ما أن توقفت الأرض عن خلط مشاعري وأفكاري المشتتة، وانطلقت خلف ذاك الطفل لعلي أفهم حقيقة ما يجري، وما أن وصلت إلى الباب حتى

خمدت النار وهب دخان شديد من الداخل، ثم شعرت بشيء

أمسكني من كتفي وقذفني للخلف، لأرتطم بأحد الأحجار بقوة دون أي ألم، هناك بعض الدوار لكنني أتحسس جسدي فلا ألم حقيقياً.

يزيد الدوار من تشويه المكان المحيط، وتلتصق الأشياء بعضها ببعض لتشكل صوراً مختلفة، حيث النوافذ المحطمة تتراكب مع الأخرى مثل قطع الأحجية فيغيب عنها الدمار بينما يصبح الدخان الأسود شعراً يتدلى على كتفي المنزل.

"أريد بعض الماء هناك طعم مر داخل فمي شفتاي المتشققتان تزيدان حدة المذاق ببعض الدم النازف".

لا أثر للماء فالنار الغاضبة التي تغلي في عروق هذه المنازل، من المؤكد أنها جففت موارده جميعها ولا أمل بأن تمطر هذه الليلة، فأعود للنهوض لأتابع طريقي نحو تلك الأضواء البعيدة.

"لكن من أكون؟؟!".

أضع يدي على رأسي وأنا أترنح يميناً وشمالاً، أجبر نفسي على تذكر من أنا ذاكرتي شريط فارغ لا موسيقى تحاكي هذا الصمت المريب، لا صور تحفز قلبي على القفز من مكانه ، كل ما أراه الآن يصبح ذاكرة جديدة ألون صفحاتها حسب ما أشتهي، لكن لطبيعة المشهد يغلب على ألواني الكثير والكثير من السواد، هذا السواد الذي يظهر كطفح جلدي يحتل المناظر حولي، يحتل جسدي وذاكرتي ولعبة ذاك الطفل الغريب، ولا شيء ينير فكري سوى انعكاس هالة الشبح المراقب لي عبر ألسنة النار البعيدة.

يصفر الهواء حولي بينما أستعيد جزءًا من شرودي حيث ترتدي النوافذ مجدداً هيئتها المدمرة وتتساقط أشجار النخيل على جانبي الطريق محترقة، فتصدر صوتاً هائلاً ما أن تصطدم بالأرض الواحدة تلو الأخرى كأنها سمفونية دمار تعزف الموت في كل صوب، ثم أتابع اقتطاع الوقت من جسد الليل وأنا أعبر مترنحاً ورئتاي تقتفيان أثر الهواء الخالي من رائحة القتل، قبل أن يحل ضباب قوي ثقيل على طول المسير.

- أنت!!.

يصدر ذلك الصوت من الضباب ثم يركض ضاحكاً والصدى يتبعه بضحكات مختلفة.

- من هناك؟!.

أصيح وأهرول ببطء خلفه ممسكاً بأطراف صداه كي لا أفقد أثره، لكنه يستمر بإطلاق الضحكات التي تبتعد كلما اقتربت صوبها، وأستمر بالهرولة لا أدري إلى أين تحملني خطاي وخطاياي.

يختفي الصدى وتتغلغل رائحة غريبة إلى أنفي بينما أشعر ببعض البرودة تغتال حرارة وجهي ومحاولاً التراجع والعودة هرباً منها كانت تلك القشعريرة تزداد وتنتشر.

- جاسم.

تمتد يد باردة جداً وتمسك يدي، ثم تعود للاختفاء ما أن ألتفت بحثاً عمن يتلاعب بي.

" لكن مهلاً من جاسم؟ هل ينادي باسمي أم ذلك اسمه، اسم ذلك المزعج؟".

أنت كف عن ذلك إما أن تظهر نفسك أو تبتعد.
تستمر الضحكات بينما تتكاثف الرائحة وتصبح أثقل، مع هبوب نسمات خفيفة باردة تحك أذني وشعري

وطرف أنفي، ثم بدأ ينحسر الضباب الخفيف أمامي ليفتح لي مناظر مريحةً للنظر، مع تسلل خيوط الشمس البرتقالية، وأزهار كانت تتفتح في كل ركن من المساحات الخضراء الشاسعة واحدة تلو الأخرى خطرت في بالي هذه التسميات دون أن أدرك معانيها وكأنها جزء عالق في الذاكرة.

"ما معنى أزهار، شمس أو خضراء؟ من أين تخرج هذه المعاني؟".

لا أعرف ما جدوى البحث عن كل تفصيله حالياً، فذاكرتي يانعة رغم سيل الكلمات التي تسعفني لأعبر عن تفاصيل ما يجري حولي، لكن علي الاستسلام الحقيقة الأمر كي أحرّض ذهني على ربط التفاصيل بعضها ببعض؛ لأحل لغز وجودي الآني وأجد لي سبيلاً في هذا الكم الكبير من الضياع.

أصبح المشهد أكثر متعة ما أن ظهر قرص الشمس الكبير ينشر النور على أطراف العشب الندي، ولروعة هذا المنظر تمددت على الأرض أراقب حبات الندى وهي تعكس لون الفجر، كأنها أشجار محملة بالبرتقال لدرجة خيلت لي رائحتها المنعشة العالقة على يدي

وأنا أقطف ثمارها، وكنت أنصاع للأحاسيس التي تختزل جزءا من ذاكرتي، ثم تُكَوِّرُها حبات تخبئ في عبابها أسراراً تحتاج الغوص في أعماقها للوصول إلى حل اللغز.

أخذتني تلك اللحظات لأغفو على امتداد جسدي، وكأنني بدأت أستمتع ببرودة العشب بينما أحتضن دفء الشمس التي بدأت تصبح أكثر سخونة.

- أيها الصغير، استيقظ.

جاء الصوت غليظاً مع الكثير من الضجة حوله.

هل تسمعني يا ولد؟! يبدو أنه استغرق وقتاً في محاولة إيقاظي، فقد كان يمسك بكتفي ويشدني بشكل مؤلم، وهو يصيح لأصحو.

- ماذا تفعل هنا؟ وأين أهلك؟.

فتحت عيني محاولاً نهيه عن تحطيم كتفي، ثم أخذت عدة ثوان لأستوعب أين أنا.

- أنت حي إذاً؟!.
- نعم حي، أريد ماءً هل لديك ماء؟.

هيئته الريفية البسيطة تدل على أنه يعيش منذ وقت طويل في هذه السهول، فهو لا يعبأ بالطين الذي لوث ثوبه الأسود، ولا بالعشب الذي حوصر تحت أظافره المتكسرة وهو يقدم لي زجاجة الماء الملفوفة على خصره.

- تفضل، هل أساعدك على الجلوس؟.
- لا، أنا بخير.

اختفت قطع الزجاج من يدي، محيت كأنها لم تكن موجودة على الإطلاق، لكن حجمهما قد أصبح أصغر وأنعم.

"نادى علي بالصغير، لكن كيف ذلك؟".

نظرت إلى جسدي، وبالفعل تقلصت أطرافي جميعها، لا أعلم سبب ذلك لكن الوعي الذي أحمله لا يدل على طفولتي، رغم أنني وليد اللحظات المتتالية التي رافقتني منذ ليلة البارحة.

- هل تهت عن منزلك؟ كيف وصلت إلى هنا؟.
- لا أعلم، لقد صحوت هنا.
- وأهلك.. هل تعلم أين يقطنون؟.
- لا أعلم.. لا أعلم..

بدا علي الغضب وأنا أحاول استعادة قطع الأحجية ومعرفة ما قادني إلى هنا، غير أن أصوات الكائنات التي كانت تنتشر على امتداد السهل قاطعت أفكاري.

- ما هذه؟.

قلت مشيراً إليها جاهلاً اسمها.

- إنها أغنام، أيعقل أنك لم تر أغناماً من قبل؟.
- ربما، لكن نسيت.

كانت تلك الأغنام مألوفة، لكن لم أستطع إجابته متحفظاً على جهلي وعلى شريط ذاكرتي التالف، ثم أردت النهوض لاكتشاف المكان أكثر، لم أقف لحظة حتى سقطت على الأرض فوراً.

- ما بك؟.

استغرب الرجل سبب سقوطي هذا، فحاول أن يساعدني مجدداً على الوقوف، لكنني لم أقدر، لا تحملني قدماي أبداً بالرغم من قدرتي على تحريكهما وأنا نائم على الأرض.

- هل أنت مشلول؟!.
- لا لقد وصلت مشياً البارحة.

- وجهك شاحب، سأجلب لك القليل من الحليب لتقوى به جسدك.

لم أجب بأي كلمة فلا أعلم عن ماذا يتحدث، لكنني تماشيت مع الأمر محاولاً الوقوف مجدداً دون جدوى، وكنت أسقط مرةً تلو الأخرى حتى استهلكني التعب فاستلقيت على الأرض أتابع ذلك الرجل وهو يجلس قرب إحدى الأغنام لا أدري ما يفعل وهو يمد يديه إلى أسفلها.

تجمع بعض الدخان الأبيض في السماء على هيئة أقراص متغايرة الشكل، ثم تداخلت تلك الأقراص في مشهد هادئ تخللته أصوات الأغنام الصغيرة البيضاء وهي تركض وتلعب قربي، وتحاول اشتمام أطرافي ووجهي، رغم لطف ملامحها لكنني أردت ردها عني فقد أصبح حصارها لي مزعجاً، كان صوت الرجل من بعيد يحاول إبعادها أيضاً لكنها لم تستجب، بل وقفت فوقي تمضغ الأعشاب وهي تنظر لي بشكل مريب.

- ابتعدي!!

- لا شيء، خذ اشرب قليلاً من هذا، إنه يدعى حليباً ويأتي من ثدي النعجة.

محاولاً تصديق جهلي صار يشرح لي جزئية كل شيء، لكن بطريقة ساخرة، فأخذت منه الزجاجة وبدأت شرب الحليب، كان طعمه غريباً ودافئاً لم أستطع تقبله في البداية لكنه أصر على شرب المزيد كي أستعيد طاقتي.

ظلت الخراف التي حاولت مهاجمتي تضرب الأرض بأقدامها، وقد تجمعت بشكل غريب بعضها حول بعض انتبه الرجل لتصرفها وحاول إبعادها وضمها لباقي القطيع، وبعد تعند شديد منها انصرفت كأن شيئاً لم يكن، ثم عاد ووجهه ممتلئ بعلامات الحيرة، أما أنا فقد أنهيت شرب الحليب وتمددت مجدداً على العشب مصاباً بالخيبة لفقداني القدرة على الوقوف وعلى فهم ما يجري.

- ربما استغربوا وجودك فليس من العادة أن يوجد طفل هنا.

لم أبال بما يقوله فقد أردت مغادرة المكان والبحث عن دليل يسعف قلة معرفتي.

- هل أستطيع مرافقتك؟ لا أعلم أين أهلي.
- لا تقلق بالتأكيد لن أتركك هنا، سنذهب ونبحث عن أهلك.

كان طيب السحنة ودوداً ولم أكن لأتردد في طلب مساعدته مطلقاً، وربما استطاع فعلاً إيجاد خيط يحفز ذاكرتي على العودة، فأنا أشعر أن هذا الجسد الضيق علي قد بدأ يخنقني.

مر الوقت دون أن أتمكن من الحراك، أما ذاك الراعي فقد أخذ ينشد بعض الكلمات المترافقة باللحن أو كما يدعى بالغناء حين أخبرني عنه، فكان صوته شجياً صافياً مثل اخضرار هذه الحقول الواسعة وهدوئها، حتى الماشية التي اعتادت كما يبدو على صوته العذب تجمعت كالجماهير أمامه، إلا بعض الخراف التي ظلت في الخلف تخشى الاقتراب دون أن تقوم بأي حركة.

انقضى الوقت ومضى الرجل في جمع الأغنام للانطلاق إلى حيث يسكن، ثم قام بحملي على ظهره وسار بي أمام القطيع الذي تبعه بكل طواعية.

- كيف تستطيع جعلهم يتبعونك هكذا؟!.

- قمت بتربيتهم منذ الصغر حتى صرنا أصدقاء.

ثم ضحك وتابع إنشاد بعض الأبيات، لا أدري سبب ضحكه لكن يبدو أنه لا يريد إرباكي بمعلومات جديدة.

- هل تقطع كل هذه المسافة يومياً؟.
- نعم.

عاد إلى الضحك الذي صار غريباً بعض الشيء، وقاطعه صوتي وأنا أصرخ فزعاً وأركل بقدمي.

- ما بك ماذا حصل؟!.
- شيء ما عضني في قدمي.

استدار إلى الخلف ولم يجد شيئاً لكنني رأيت الخراف وهي تتراجع بين الأغنام، ليتوقف الرجل ويأخذ نظرة سريعةً على ما حصل، حيث كانت هناك عضة واضحة في مشط قدمي بما أنني لم أكن أنتعل أي حذاء، كانت الأسنان قد حفرت علامات عميقة من جهة واحدة فقط.

- إنها عضة خروف.

نظر قليلاً باحثاً عن إحداها لكنها استطاعت الاختفاء بين القطيع.

لا تخف إن عضة الخروف غير مؤذية قام بحملي مجدداً وسار بي، ولاحظت عينيه تأخذان نظرة خاطفة للخلف كلما استطاع الاستدارة أو تنبه لحركة تبدر مني وأنا أحاول الحذر من اقتراب الخراف مركزاً عيني إلى الخلف أيضاً في أغلب الأوقات.

- هذه هي قريتي.

أخذ نفساً عميقاً وهو يخبرني بذلك، كأنه تعب من حملي لكن طبيعته الصلبة لا تريد الاستسلام.

- وذاك هو منزلي.

خشيت التعبير عن أي تفصيله تخص المكان فتكون الكلمات فضفاضةً عليّ، وأفسح المجال للراعي ليسخر مني مجدداً، لذا فقد كان الصمت أنجى، كان المكان مألوفاً بشكل غريب، خاصةً مع أشجار النخيل الشاهقة في الفسحة الأمامية وأشجار الليمون في محيط المنزل وقرب النوافذ بينما كان الاختلاف الوحيد في الحظيرة، التي ما أن وصلنا صوبها حتى ركضت الماشية نحوها، حيث كانت تحفظ تماماً مكان البوابة منتظرة أن يفتح لها الراعي الباب لتدخل.

بالفعل دخل القطيع وأنا أتابع الخراف التي كانت تبادلني نظرات القلق والخوف.

في الخارج، تنتظره زوجته التي بان عليها التعجب لرؤيتي، ليشير لها الراعي بوجوب تأجيل الحديث، ربما لا يريد إحراجي أمامها وإظهار جهلي وضعفي، وعلى النافذة المطلة على الشارع وقفت فتاة في العشرينيات وهي تتابع ما يجري في الخارج، لم يكن الرجل كبيراً في السن لتكون ابنته فربما تكون أخته أو أخت زوجته، وشعرت بالوعي الذي يقتحم ذهني ويسقط بعض الكلمات المألوفة لي.

- من هذا يا فيصل؟

سمعت زوجته وهي تهمس له، لكنه أصر مجدداً على عدم التحدث وطلب منها بعض الماء للاغتسال في الخارج فقد ملأ الطين حذاءه، واستغربت قوته التي تساعده على حملي أنا والحذاء، أشحت بعيني عن الفتاة التي لم تتحرك أبداً، ثم نظرت لأشجار النخيل وهي تتراقص على أنغام الريح العابرة.

"تشدني تلك الأشجار بعظمتها وقامتها، كأنها تريد مني احتضانها ومرافقتها الرقص، لكنني لا أستطيع المشي لأكون على قدر الموسيقا".

جلبت زوجته الماء في إناء كبير، ثم أخذتني منه وأدخلتني للمنزل بعد أن أخبرها أنني لا أقدر على السير، فوضعتني على الأرض وتركتني أتمدد على الحصيرة المطرزة، كانت الصالة ذات طابع ريفي حيث الأثاث البسيط مع حصيرة كبيرة معشقة بالألوان الفاقعة مع القليل من الوسائد المخصصة للجلوس وعلى الرفوف المحيطة تم وضع بعض القدور النحاسية وأدوات أخرى، بينما علق على الجدران القليل من الصور القديمة التي كانت أشبه بالأصالة المتوارثة عبر الزمن، وعلى امتداد الجدران والنظرات التي تتقصى أقل التفاصيل المحيطة توجد غرفة مغلقة أسدل على بابها وشاخ طويل ناصع البياض بحيث يتماهى مع لون الجدران المحيطة، ويمنع الناس من معرفة ما يقبع في الخلف.

"كيف وصلت تلك الفتاة إلى الداخل؟".

قاطع اقتحام حواسي لتفاصيل الصالة والأفكار الغريبة صوت فيصل وهو ينادي زوجته التي كانت تحضر المائدة.

- هاجر!!
- نعم قادمة .

تناولت منه الإناء ودخلت مجدداً، بينما تبعها بخطوات ثقيلة كأنه لم يخلع الحذاء، لقد نالت من أقدامه الحقول والأتربة والجري خلف القطيع، ونظر لي نظرة ترحيب تفيض بالابتسامة، كم كان مريحاً وجودي في هذا المنزل وفي هذا الجو الذي تغمره الطيبة والمحبة، أخذ حماماً سريعاً ثم خرج ليساعد زوجته التي بدأت تستفسر عن سبب وجودي فاعتراني الفضول للتسلل واستراق السمع لكن الصوت كان واضحاً.

- من هذا الصغير؟.
- وجدته في السهل حيث ترعى الماشية.
- في السهل ؟ ماذا يفعل هناك؟.
- لا أدري لكنه لا يستطيع السير، كأن لديه مشكلة صحية.

- وهل ستبقيه هنا؟.

أخذ نفساً عميقاً ثم استدار للخلف ورآني متحمساً أتابع ما يجري من حديث.

- بالتأكيد ثمة من يبحث عنه حالياً، لذا على أخذه إلى مركز الشرطة لإعلامهم بوجوده عندنا.
- هذا أفضل لا نريد أن نتحمل مسؤوليته، قد تكون أمه قلقة للغاية عليه.
- نعم بالتأكيد.

لا أعلم لم شعرت بالحزن وكأنني لا أريد مغادرة المنزل، هما يعاملانني كطفل صغير وأنا أعي أن في داخلي رجلاً كبيراً يتحدث، لكن لا أستطيع البوح بحقيقتي الآن يكفيني من الخيبة فقدان هويتي وشلل أطرافي رغم أن فكرة الذهاب لقسم الشرطة الذي تم ذكره كانت مزعجة للغاية.

فاضت رائحة الطعام الشهي؛ مما جعل بطني يصدر أصواتاً تراقص جوعي الكبير، وأعد فيصل المائدة رفقة زوجته هاجر، ثم ساعدني على الجلوس.

- هاك بعض الخبز.

كان شكله دائرياً كبيراً تفوح منه رائحة النار، ويفتح قريحة الجوع للانقضاض على الطعام، لم أرد معرفة معنى تلك التسمية لكنني بدأت بأكل ما دعاه بالخبز بطريقة فوضوية جعلت القطع تتساقط حولي، توقف الاثنان عن تناول الطعام وهما يراقبانني باستغراب لتنهض هاجر إلى قربي وتزيل بعض قطع الخبز العالق على ثيابي، وتخبرني بطريقة تناوله بالشكل الصحيح.

- تمسك القطعة هكذا وتغمسها في القدر.

لم أستطع القيام بذلك الأمر بسهولة في البداية لكنها ساعدتني وأمسكت يدي ورحت أتناول اللقمة تلو الأخرى، فلم أنتبه لكونها ظلت دون طعام وهي منشغلة بمحاولة مساعدتي.

- دعيني أطعمه.

نهض فيصل المعاونة زوجته وأنا أطرق رأسي في القدر، جوع كبير يفتك بي فلا أنفك عن التوقف للحظة، كأن ناراً مستعرةً جائعة اشتعلت داخلي وبدأت أسكب الطعام على نفسي حتى ارتميت على القدر لا أدري ما حصل بعدها....

- هل سيكون بخي؟
- نعم لا تقلق من الواضح أنه يعاني من سوء تغذية شديد، سأكتب لك وصفةً عليه الالتزام بها.
- شكراً أيها الطبيب.

لا أدري إن حصل هذا الحديث أم كان مجرد حلم غريب، لكنني أعرف هذه الأجواء جيداً حيث تنتشر روائح المطهرات في كل مكان، ويسود المكان أصوات سيارات الإسعاف والناس الذين يعبرون في الممر الخارجي، أعرف جيداً أنني في المستشفى لكنني لا أدري ما جرى بعد أن فقدت وعيي.

اقترب مني فيصل وهاجر اللذان كانا شاهدين على همجية أفعالي، ثم أخبرني الراعي اللطيف بوجوب عدم التحرك حتى أتحسن، وقد علق كيس دواء بيدي ومضى الوقت بطيئاً أكثر وأنا لي باع طويل في الصراع مع الوقت، أو ربما هذا الشيء الوحيد الذي أستطيع تذكره حين أستجمع أفكاري، حين أستطرد في الخيال وتسعفني الكلمات.

"أقتات على الدقائق، ملجئي الأصوات المحيطة، ولا بأس الآن بأخذ قيلولة للغوص في الذاكرة".

كيف يأتي النوم؟ كانت تلك أول الأفكار التي ظهرت أمامي ما أن أغمضت عيني باحثاً عن فسحة فراغ أهرب بها من الواقع، لذا حين أمعنت في الفكرة وتقصيت حقائقها أصبحت تلك لحظة فاصلة، حين ينتقل الوعي من حالة اليقظة والإدراك إلى حالة اللاوعي التام كيف يمكن التقاط طرف السقطة تلك ؟! حيث أعلم أين أذهب من تلقاء نفسي، دون أن تدفعني المشاعر إلى الجهة التي تناسب أهواءها، فأختار قطع الوقت في خلوة أكفّر بها عن حدث ارتكبته أثر بي سلباً، أو أختار الغوص في سلام خالص لا يشوبه أي إحساس بالألم، هو ذلك القبول التام بما أشتهي وما أريد، وفي خضم تلك التقلبات والأفكار سرقني النوم تاركاً لغز إيقاعه بي خارج حدود إدراكي، ربما لا يريدني أن أكشف الستار عن متعة التجربة ويظل البحث فيها أشبه بقصص الخيال.

صحوت بعد عدة ساعات من غفوتي على وقع خطوات فيصل الثقيلة، وهو يحوم فوقي مرتبكاً بينما يكلم هاجر التي خرجت بعدها كما يبدو لإحضار أحد

الأطباء، وبالفعل لم يمض وقت حتى اقتحم أحد الأطباء الغرفة مسلطاً ضوء مصباح صغير على عيني وهو يتفحصهما بدقة، ليقيس توالياً حرارتي ونبضي ويأخذ نفساً عميقاً قبل أن يفتتح الحديث مع فيصل.

- لم أر شيئاً مشابهاً في السابق، يجب إعادة إجراء المزيد من التحاليل.

وضع يده على رأسه وهو ينظر إلي ويفكر، ثم انطلق مسرعاً متجاهلاً كلام الراعي الطيب وزوجته اللذين حاولا الاستفسار عما يجري.

- ماذا هناك ؟! لا أعلم يا عزيزتي لكن سألحق به لأستقصي الأمر.

خرج فيصل، بينما اقتربت مني هاجر وهي تمسح رأسي وتحاول إخراج يدي الصغيرة من الكنزة.

- لا تقلق يا صغير ستكون بخير.

قالت تلك الكلمات وعيونها تطلق عناوين أخرى حيث لا مجال للشك أن هناك ما يبعث القلق داخلها، وظلت تراقبني وهي تسير ذهاباً وإياباً في قلق كبير، تنتظر قدوم زوجها بخبر يروي ظمأها، لتخرج

من الغرفة على إثر بعض الضجة في الخارج وتغيب لبضع دقائق.

حاولت إيقاف حركة أطرافي التي كانت تفتعل خارج إرادتي أخذاً بالتقلب يميناً ويساراً للحد من فرط انفعالاتي التي صارت لا تتوقف، مما جعل شريط الدواء الممتد إلى يدي يعلق حولي بينما أدور، فلم أتوقف حتى وصلت إلى حافة السرير؛ لأهوي على الأرض مسقطاً فوقي كيس الدواء المعلق بالشريط أحدثت تلك الوقعة جلبة دفعت هاجر للعودة إلى الغرفة لتجدني غارقاً في بؤسي وبكائي بينما تنزف يدي بقطرات الدم، فأعادتني إلى السرير وخرجت لإحضار المساعدة.

لم أشعر بالألم رغم ذلك الصراخ والدموع التي كانت خارج إرادتي، فلا أقدر الآن على التحكم بماهية ما أشعر، وكل ما أفتعله هي حركات غير إرادية تزيد معاناتي، قاطعت سلسلة أفكاري خطوات هاجر التي دخلت مسرعة وخلفها إحدى الممرضات، حيث باشرت بإجراءات السلامة المعتادة وتفحص ما جرى ثم إعادة الأمل إلى دائرة الشفاء.

- أنت طفل جميل، لا تقلق كل شيء بخير.

قالت الممرضة تلك الكلمات، وهي تداعب خدي كأنني طفل صغير بينما تبتسم رغم إرادتها.

"كانت عيناها تقولان شيئاً آخر، هناك حزن يدمي قلبها، لذا لا أستطيع مبادلتها البسمة".

أنهت الممرضة عملها ثم خرجت مسرعة، بينما أخذت هاجر بعض المناديل تريد إزالة الدم الذي نزف على الأرض، فانحنت لبضع ثوان دون أن تقوم بأي حركة، جمود ما أصابها جعلها تقف مجدداً وتتجه نحو يدي ونظرات الغرابة لا تفارق وجهها، فحاولت أخذ نظرة خاطفة لأعرف ما السبب؛ فلم أجد نقاط الدم التي يفترض أن تترك أثراً على طرف الكنزة، أو حتى على يدي.

لم يستمر ذلك الجمود طويلاً حيث بدأت المصابيح بالخفقان كأنها خطوات ثقيلة، أو ضربات القلب يكاد يتوقف، بينما سمعت هرولة بعض الناس في الخارج وهي تقترب نحوي، وبالفعل كانت تلك أقدام فيصل الذي أمسك بيد زوجته وأعادها من شرودها، ثم

سحب شريط الدواء من يدي دون أن يفصح عما يدور.

- توقف يا عزيزي ماذا تفعل لقد أخفتني.
- لا أستطيع الكلام الآن لكن علينا الخروج فوراً.

حملني بين يديه وانطلق وهو يدفع زوجته للخارج كنت قطعة صغيرة يحملها كأنني ولدت للتو، واستمرا بالركض في أروقة المستشفى الذي صارت أضواؤه تنبض ويعلو ضياؤها قبل أن تنفجر، فكانت هاجر تصرخ خائفةً مما يجري، وهي ترى انعكاس طيف أبيض على زجاج النوافذ في طريق الخروج، وقبل أن نصل إلى الباب توقف فيصل فجأة وقد ظهر أمامه الطبيب ومجموعة من الممرضين ورجال الأمن.

- يريدون تخليصنا الطفل، لقد تسللت خلفه وعرفت بما يخطط له.

قال تلك الكلمات دون أن يعطي الفرصة لزوجته للشرح أكثر، فقد كان الوضع مشحوناً للغاية ويريد الهرب من المكان بأي ثمن تسارعت ضربات قلبه

بشكل كبير، ليقوم خشية أن أصاب بأذى بإعطائي لهاجر، ثم يشد قبضتيه كأنه يستعد للعراك معهم.

"كيف للطفولة أن تكون بهذا الإدراك؟ أستطيع الإحساس بتفاصيل ما يجري بكل سهولة، وأعلم أن ثمة شراً يقبع في جدران هذا المستشفى".

صرخت زوجته التي شعرت بيد تمسك بها من الخلف، ثم ركضت نحو فيصل، لكن لم يكن أحد خلفها، أما الطبيب فحاول الاقتراب بهدوء والتخفيف من روع فيصل الذي كان مستعداً لفعل أي شيء لمنع الطبيب من الاقتراب.

استمرت المصابيح بالارتجاف كهذا الوضع المريب ليقترب بعض رجال الأمن من خلف الطبيب ويهددوا الراعي الطيب.

- اترك الطفل ولن نؤذيك.

زاد تهديدهم من حدة فيصل، أشعر بصلابته وغضبه الذي يرتفع مع كل خطوة يقوم بها هؤلاء الرجال، لا أعلم سبب شراسته في الدفاع عني ففي نهاية الأمر أنا مجرد طفل وجده في البرية، وقد زاد إصراره على منعهم من الاقتراب لدرجة أنه اتجه نحو

إحدى النوافذ لتحطيم زجاجها والتسلح به، ولكن ما أن رفع يده حتى امتد ذلك الطيف وأمسكه ثم دفعه أرضاً بقوة، لتجري نحوه هاجر بوجهها الشاحب المرتعب الذي كان أجمل من أن يتعرض لهذا الخوف، ثم والدموع تنهمر على خديها قالت لزوجها:

- توقف أرجوك أنا خائفة.

وضعتني على الأرض وهي تصرخ تريد الخروج من هذا الكابوس، بينما فيصل فاقد للوعي على إثر الضربة، أما الطبيب فقد اقترب مع بقية الرجال يريدون أخذي، وما أن وصلوا فوقي حتى ظهر من بينهم أحد الخراف وهو يشم رائحتي بنهم عيناه واسعتان بلون أسود مرعب، غاب عنهما البياض ومحى تفاصيل الحياة داخلهما، حتى صار اللون الأسود يطغى على أعين كافة الرجال الواقفين ومنهم الطبيب وفيصل انضم لهم بعد أن استعاد للتو وعيه ونهض كأن قوة خارقة تحمله أما هاجر فكانت تخشى النظر ومتابعة ما يحدث فقد رفعت أخيراً يديها عن وجهها، والدماء تغطي ملامحها الجميلة، لا أعلم من أين جاءت تلك الدماء لكنها نظرت لي وأخبرتني أنني السبب.

للوهلة الأولى أريد الاعتراف أنني السبب، لكنني لا أجد وسيلة تشفع لي اللعنة المرافقة لي، هذه اللعنة التي تنشر الخراب أينما حللت.

"نعم أنا السبب، أعلم ذلك، أريد الخلاص لروحي أريد النجاة".

أردت مسح الدموع التي تنهمر بغزارة على وجهي، لكن يدي الممتلئتين بقطع الزجاج منعتاني من ذلك، لا أستطيع وصف الألم المرافق لجراحهما لكن أشعر أن لهيباً يجري عبر كياني بأكمله، وجع لا أستطيع احتماله مطلقاً جعلني أتلوى على الأرض كثعبان يحتضر، وأسمع أصواتاً داخل أروقة رأسي تأتي من بعيد وتقترب بسرعة، ثم تنادي بصوت يختنق

- جاسم، انتبه!!.

بأفكاري المشتتة ونبضي الذي ينتفض، لا يمكنني وصف القوة التي اجتاحت كياني مع سماع هذا الاسم، هذا الصوت، فكل تفاصيله واضحة لكن لا أعلم حقيقتها، وكل ما أستطيع فعله الآن محاولة الهرب بعيداً وإبعاد الشر قدر ما استطعت عن هذين

الزوجين الرائعين اللذين جلبت لحياتهما الهادئة الخراب.

"لا عجب أن تلك الخراف حاولت إخافتي والنيل مني لاقتحام سعادتهما، لكن من يكون جاسم ؟!!".

أشعر بالقوة تسري في عروقي، وتمد جسدي بطاقة غريبة تجعل أقدامي على أهبة الاستعداد للركض والهرب، ومع صراخ هاجر واقتراب فيصل للإمساك بي دفعت الخروف نحوه بقدمي، دون أن أدرك كيف استطعت ذلك لكن التمسك بالأمل يخلق المعجزات لأحبو بعدها كالرضيع وقطع الزجاج تشوه يدي وتمزقهما فتنزفان دماً على امتداد خط هروبي، تنزفان ألماً أعوض به عما اقترفت لهذه العائلة.

كانت لزوجة الدماء تسقطني فأدفع نفسي للمتابعة بكل ما أوتيت من عزيمة الباب أمامي، لكن لا أجرؤ على النظر خلفي رغم سماعي لوقع أقدامهم تدق خلفي، بقيت أسقط وأزحف وأكمامي الملونة بالدم تعيق حركتي فقمت بتمزيقها ما أن وصلت إلى الباب مستنداً على ركبتي وأنا أنهض نحو قبضته، لكن ذلك الخروف انقض على قدمي وبدأ بالعض يريد منعي من

الخروج، كنت على وشك الاستسلام لأسنانه التي تنهش لحمي، لولا أني سمعت صوت خطوات تجري وتضربه وهي تقتحم الباب ثم تسحبني للداخل وتقفله كانت تلك هاجر بدموعها التي حفرت أخاديد على خديها المضرجين بالدم، وقفت أمامي وهي ترتجف لا تعلم كيف تجرأت على فعل ذلك، ثم حاولت التقاط أنفاسها وهي تلتقط في اللحظة نفسها أحد الكراسي في الغرفة وتحمله نحو النافذة، لتقوم بتحطيم زجاجها للخروج من المكان.

- يمكن أن نخرج من هنا.

قالت لي بصوتها المرتجف كأنها تقوم بتلك الأفعال خارج إرادتها، تبحث عن النجاة مثلي من حصار هذا الكابوس.

- يجب أن تستند على وتنهض .
- لا أستطيع ذلك!.

خرج الكلام من فمي وأنا مدرك تماماً أنني عاجز عن الوقوف، إلا أن إصرارها وأصوات الواقفين خلف الباب وهم يجربون تحطيمه أجبرتني على المحاولة وتختلط المشاعر داخلي حين تخترق الرعشة أوصالي

بعد لمستها الأولى ليدي، وهي تنطق مجدداً بالاسم الذي صار وقعه أكبر.

- جاسم أسرع !!

لم أتوقف لحظة لسؤالها عن قصدها، ولم نادتني بهذا الاسم فأنا نفسي لا أعلم من أكون كل ما أعلمه أن نطقها له زاد شغفي للمقاومة، ربما صوتها الذي أصبح أكثر رقة، ربما خوفي من الموت المتربص خلفي وقد بدأ يخترق الخشب، وفي أي لحظة يمكن له أن ينهي فرصي بالهروب.

نهضت وأنا أصرخ بكامل قوتي والمصابيح ترتعش وتعلو لأقف فعلاً آخذاً بيدها متجهين نحو النافذة التي كانت تطل على حديقة المستشفى بأشجاره العالية، لتقفز هي قبلي وأقفز بعدها مرتمياً على الأرض وأنهض من جديد على وقع الباب الذي فتح، بدأت بالركض وجسدي الذي ضاقت عليه الثياب صار أكبر، لكن هاجر لم تستغرب كأن شيئاً لم يكن.

- أمامنا مشوار طويل نحو السهول.
- السهول!! ماذا يوجد هناك؟
- هناك فقدت هويتك.

- كيف تعلمين هذا؟
- أخبرني أدريان.

وقفت في مكاني مصدوماً بكلامها، حيث أصبح في تلك اللحظة مفهوماً تماماً وأدرك تفاصيله لكن ينقصني اكتشاف سبب وجودي الآن هنا، لم أتمالك نفسي عن الركض بعيداً عنها فكل شيء أصبح مؤرقاً ويصعب احتواؤه داخل قشرة دماغي الهشة، كأحلامي وعزيمتي وتاريخي بأكمله.

انطلقت وأنا أخشى النظر خلفي مدركاً أن عيونها لا تفارق جسدي الهارب على الطريق الرئيس، هذا الجسد الذي بدأ يشحذ طاقته من الهواء المنعش الذي يلطم وجهه، حيث تعبر السيارات متشابهة لا أحد يجلس خلف المقود، بينما يجلس على المقعد المجاور شخص يشبهني للغاية، وهو ينظر لي ويبتسم على اليمين وعلى اليسار وفي كافة الاتجاهات كانت السيارات العابرة نسخاً متطابقةً مني فرحت أدور حول نفسي وأنا أتابعها فزعاً من هول المشهد، بينما من بعيد لاح لي شبح يقف داخل النافذة يمد يده لي، ويصيح باسمي:

- جاسم!!.

يتكرر الصوت ذاته وتتكرر الملامح لذاك الشبح الذي لا يزال ينادي من بعيد، بينما صارت السيارات العابرة تقترب مني في محاولة إصابتي، فاستجمعت ما تبقى من تركيزي لأقفز خارج حدود الطريق وأتجنب الإصابة.

كانت قفزتي بمثابة تغيير للمشهد، كأنني أجلس داخل شاشة تلفاز فأنا الصورة وأنا المتحكم الخارجي بالمادة المعروضة، أو ربما أحاول إقناع نفسي بهذا لأخفف وطأة ما يحدث على أفكاري المشتتة.

- كيف انتهيت هنا؟ أين هاجر؟ فيصل؟".

رائحة الكحول ورائحة الموت في المستشفى لا تزال داخل أنفي، وأصوات المعدات التي تقيس معدل ضربات الخوف في قلبي أبث إلا وأن تلازم أذني فأزداد توتراً وأنا مرمي على جانب الطريق بأفكاري المتشابكة وأحاسيسي المضطربة، ولم يعد الشبح يلاحق صورتي كأنه شعر مثلي بضرورة الانسحاب لكن لا

أعرف أي وجهة أقطعها فالطريق المظلم في آخره لا يبشر بالخير.

"سأثق بحدسي وأتجه نحو منزل الشبح، يمكن أن أجد بعض الإجابات".

نهضت بصعوبة واتجهت إلى حيث كانت ألسنة النار تعانق أشجار النخيل الصامتة، وقد بدت تلك الأشجار تتلوى يمنةً ويساراً كأنها تهز السرير للموت الذي أبى أن يفطم عنها.

- لا تقرب الباب!!.

عاد الصوت لكن هذه المرة كان قادماً من فمي أتحدث بصوت لا أعرفه وتتحرك شفتاي غصباً عني وأنا مدرك لكل الكلام الذي أنوي نطقه، كانت القوة التي سيطرت لحظتها أصعب من أن أقيدها وأمنعها من التحكم بي، رغم محاولاتي للإطباق بأسناني بكل طاقتي لتجنب ما قد يمكن أن يحدث بعدها، لكن حدسي يصر على جعلي أقترب من الباب المحترق أشعر أنه جزء مني كذاكرتي الخاوية المنغلقة على نفسها ويجب أن أجرب أي شيء يحرض الذكريات على الاستيقاظ من سباتها.

- أرجوك يا....

لم أكمل الاستماع إلى بقية الكلام الخارج من فمي فقد أمسكت مقبض الباب الذي ذاب في يدي كقطعة ثلج، وانفتح الباب على آخره.

"ما هذه البرودة التي اكتسحت المكان؟ لا حياة هنا ولا أثر لأي أحد".

كان المنزل مهجوراً، بعض زجاجات من الماء مرمية وصور لأشخاص بلا ملامح بلا تفاصيل بعضها محطم على الأرض والبعض يوشك على السقوط، ورائحة المنزل نتنة للغاية والبرودة تلفح وجهي كأنني داخل براد موتى، تقدمت للداخل أكثر والخشب يصدر صريراً قوياً تحت قدمي، وأصبحت الرائحة أكثر وضوحاً، فاقتربت من باب الغرفة المجاورة الذي نمت وجفت عليه بعض الأغصان المغطاة بسائل لزج ذي رائحة مميزة، وقعت يدي عليه في الظلام الدامس.

"كما توقعت!! إنها دماء.. لكنها دافئة كأنها نزفت منذ وقت قصير".

ثم حاولت فتح الباب لأستكشف ما يوجد في الداخل، وقد كان مفتوحاً بعض الشيء لكن هناك ما يعيقه في الخلف، لذا وبعد عدة محاولات واضعاً ثقلي وقوتي لزحزحة ما يمنع الباب من التحرك، استطعت فتحه لمسافة تساعدني على الولوج للداخل، كانت ألسنة النار في خارج المنزل تعكس النور على الجدران وتتيح المجال لتقفي ماهية التفاصيل، لذا وما أن

مددت رأسي حتى رأيت كتلةً تقبع خلف الباب، لم أتبين طبيعتها حتى حشرت نفسي بصعوبة منسلاً للداخل.

لم تكن تلك الكتلة سوى جثة هامدة لامرأة لم أستطع تمييزها، فقد كان شعرها الطويل يغطي وجهها ممزوجاً بالدماء.

" إنها ذاتها نعم اللزوجة والدفء والرائحة أنفسها".

دون أي رهبة من الموت حركت رأسها المدمي نحوي لأتبين هويتها، وعلى الأرجح تبدو من حيث قوامها امرأةً كبيرة بالسن، ثم بدأت بإزالة الشعر الذي التصق بملامحها، لم أستطع مقاومة المنظر الذي

أجفلني وأبعدني للخلف بعد أن رأيت وجهها، فقد كانت العينان المتسعتان تحدقان بي لا حياة بهما ورغم ذلك كانت تلك النظرات مرعبةً للغاية، أنا نفسي الذي لم أخش الموت وأن أقدم على اكتشاف المجهول.

فركت عيني محاولاً استعادة تركيزي ثم اقتربت مجدداً، لقد علقت بعض نثرات الخشب داخل بؤبؤ العين الأسود في مشهد يزيد الرعب داخل القلب، تلك النثرات التي بدت رغم خفة الضوء تتحرك قليلاً، لذا ولأصدق ما أرى انحنيت مركزاً حواسي على ما يتحرك في منتصف العين، لكن لم يشأ الصمت المطبق على أنفاسي أن يسعفني وأنا أقترب أكثر وأكثر، فقد انفجر الدم خارجاً بقوة مغطياً وجهي بأكمله، لقد كان حارقاً وساخناً حجب عني الرؤية فلم أستطع الاهتداء لأي شيء يمكن أن يخفف وطأة ألمه، لا قطعة قماش ولا ماء، لا شيء.

- جاسم خلفك!!

عاد الصوت يحفر رأسي وأذني يزيد معاناتي وأنا أسحب جسدي وارتطم بالجدران لا أدري كيف

أخفف وجعي، حيث الغشاوة على عيني تشكل ستارة لا يمكنني تجاوزها، وحاولت مسح الدماء بيدي، لكن الستارة تزداد انسدالاً وتصيب رأسي بالدوار، وذلك الصوت أبي إلا أن يعيد الصراخ بأذني:

- توقف، ستسقط ولا أستطيع إنقاذك!.

لم أبال بما أسمع، بل زاد غضبي مما يجري فرحت أضرب الهواء بكلتا يدي ربما إن استطعت إصابة الصوت سيكف عن محاولة استفزازي.

- من أنت؟! ابتعد عني!

صرخت دون أن أتوقف لحظة عن محاولة إصابة مصدر الصوت الذي راح يضحك هذه المرة.

- لماذا تضحك؟ أقول لك من أنت؟

لم يجب الصوت، بل عاد الهدوء ليعم الجو مشكلاً مع أنفاسي المتقطعة لحناً مزعجاً، وبدأت الستارة بالانحسار قليلاً فجلست مكاني لأخذ استراحة من كل هذا الجنون. كانت قطع الزجاج والأتربة تملأ الأرضية وخلفي سرير خشبي يبدو أنه نال نصيبه من النار، فقد تفحم خشبه الذي لا يزال يحتفظ ببعض حرارة ورائحة الحريق الأخير.

سحبت جسدي للابتعاد عن الجثة حين استشعرت حركة قادمة من صوبها، وتشبثت بالسرير المهترئ ونهضت لأصعد فوقه لكن الخشب المحروق اختفى وظهرت أتربة وأعشاب وحجارة.

قلت لنفسي: "لا بد أن هذه الحجارة سقطت من السقف أثناء الحريق".

في محاولة لإقناع نفسي بتلك التفصيلة الصغيرة، كي لا تراودني أي أفكار سيئة أخرى، يكفيني ما حل بي، يكفي عقلي وقلبي التشرد خلف أهواء الشر المحيط والمتحكم بمسرحية معاناتي التي لا تنتهي.

"كأنها أزهار، رائحتها لطيفة وملمسها الناعم يتغلغل داخل مسامي"

تابعت تحسس السرير حيث تكسوه الأعشاب في كامل أجزائه، وهناك حجر مسطح كبير في نهايته تبدو عليه آثار نقوش عميقة تخط بعض الكلمات الغريبة، ولاستمرار الغشاوة على عيني وضعت يدي أقتفي شكل الحروف المحفورة محاولاً قراءتها.

- ...هن.. هنا.. تر.. ترقد.

لم أستطع إكمال الاسم أو لم أرد تصديق ما كتب تلك الكلمات التي وبلمح البصر أعادت ذاكرتي وبأبشع طريقة، لم أع الحقيقة في البداية لذا عدت لأتحقق مما وجدت وقد انزاحت الستارة عن ناظري لأتيقن ماهية الحروف المنقوشة.

- لا .. لا يمكن ذلك، كيف حصل هذا؟! لا أستطيع تصديق ذلك يا عزيزتي!

عاد بي الزمن إلى كل ما جرى قبل خروجي على الطريق، عادت ذاكرة النور الذي تملكني لوقت طويل داخل جدران هذا المنزل، لكن كيف انتهت الأمور هكذا؟ وكيف ماتت مها ؟ آلاف الأسئلة التي سقطت على رأسي المضطرب دون أن أجد جواباً يخفف الألم الذي غرز في صدري.

كانت الصور تدور حولي كإعصار وتعصف بنبضات قلبي الذي كاد أن يخرج من صدري، وأنا أردد التفاصيل الغائبة عن وعيي.

- أدريان، أبي، الموت.. الموت!!

ثم وصلت إلى أنفي رائحة كحول متداخلة مع رائحة التراب ورطوبته، وصارت الصور عبارة عن قطار

سريع يسقطني في عدة محطات، لا أقوى على الاختيار بينها، بل كان القطار يتقصد رفع أقصى درجات الحزن التي تلطم جلدي وذاكرتي، وتستمر بعدها المحطات في عكس هذا السواد الداخلي الذي يخرج كالغثيان من بين ضلوعي ومن عيني، بينما تعبر اللحظات مراراً في شريط جهز سلفاً لعرضه أمامي.

"مجبر على تحمل الألم، لا أقوى أن أشيح بنظري أو ربما لا أريد قد أكون أعاقب نفسي على الغياب وترك الأسى يسري في عروق هذا البيت".

أخاطب قلبي وأنا أشعر بالدمع يسقط من عيني المتسمرتين على القبر، حيث يُجبل التراب مع الندم عل الوقت يتوقف ليعود بي إلى نقطة الصفر، حيث تركت حلمي قاب قوسين أو أدنى من الحقيقة، حيث تركت سعادتي تخبو في ضلوع هشاشة المكان وخضعت للريح التي تقاذفت روحي كقصاصات تحترق في هشيم سعادة اخترعتها، ربما كان ادعاء الفرح أهون على قلبي من اكتشاف الحقيقة. استمرت دموعي بالنزول والجو الغارق في وحدته يبادلني السكون هذا السكون الذي قاطعته حشرجة أنفاس قادمة من بين التراب من داخل القبر، لم أتمالك

نفسي لذا بدأت بالحفر بكلتا يدي لا أبالي بأظافري التي تتكسر في الحجارة التي تعترض أصابعي، ولا بالدماء التي نزفت من الزجاج الذي لا أعلم سبب وجوده، استمررت في الحفر بجراحي الثخينة والموجعة لا شيء يوقفني عن الوصول إلى ذلك الصوت.

"سأحفر بوجهي وبقلبي إن اضطررت" لا أعلم مدى تحملي للاستمرار في الحقيقة، لكن كنت أريد إقناع جسدي بالمتابعة وعدم الاستسلام، قد لا تكون النتيجة مرضية لكنها أفضل من عدم القيام بشيء فروحي تستحق بعض الهدوء وقلبي لا يتفق مع الوهم، لا يخفف حرقته تخيل الأفضل وأن كل شيء على ما يرام.

"لا يمكن هذا!".

كان التراب يعود من الأسفل كأنني أحفر في الهواء، لا يريد القبر أن أبحث أعمق من ذلك، كنت أعتقد ذلك للحظة لولا أن يداً امتدت من بين الأتربة وأمسكت يدي وهي تضغط بشدة تريد الخروج، كانت اليد باردة جداً وناعمة وأعرف تفاصيلها جيداً، لذا للوهلة

الأولى صدقت أنها على قيد الحياة رغم أن عقلي يرفض قطعاً فكرة أن يعود أحد من الموت، خاصة أن برودة الجسد تدل على مضي وقت طويل على فنائه، لكن قلبي لن يشفع لي التوقف عن الإيمان بالمعجزات.

قاطع ابتسامة الأمل التي علت وجهي صوت أحدهم وهو يطلب تثبيت يدي كان صوته مألوفاً لكن لم يمنعني ذلك من محاولة الإفلات أو إصابة اليد التي تحاول إبعادي عن القبر، لا يمكن أن أفلت يدها وأترك حبل النجاة الذي فتح لي باب العودة للواقع.

- ثبته بقوة كي لا يصيبك.

بعد الكثير من المقاومة استسلمت للخدر الذي أصاب جسدي فجأةً، كأنني أصبت بالشلل فلا أشعر بشيء مطلقاً ولا أقوى على فتح عيني لمشاهدة ما يجري خلف كواليس الأصوات المتخفية، تلك الأصوات التي بدت كأنها تختنق أو كأن أحداً يحاول التحدث تحت الماء.

أعلم تردد صدى الكلمات فقد كنت أجربه في طفولتي وأنا أتخيل نفسي سمكة تسبح في البحر بكامل

حريتها وسعادتها. لم يمض وقت طويل حتى رأيت ضوءاً أمام عيني وكان يقف خلفه خيال لأحدهم يتحدث بنبرة مألوفة أيضاً رغم عدم وضوحها، لقد كان تسليط النور داخل البؤبؤ مزعجاً لدرجة خيل لي معها احتراق الدمع وجفافه على خدي، حيث وقف ذلك الشخص طويلاً يتفحص ما يمكن سرقته من أفكار وأحلام.

"كيف أقنع جسدي بعدم الانصياع للألم؟ لا أستطيع محاربة شياطين الشر التي تشحذ أسنانها لامتصاص ما تبقى من مقاومة داخل قلبي !".

تردد شفتاي كلمات متقطعة وتصفر أنفاسي على تردد صوت ذلك القطار، لأقفز إلى محطة أخرى أقل إيلاماً وخبثاً، بينما استمر الشخص في إجبار جسدي على الانصياع لأوامره، كأنني دمية يحركها كيفما شاء ورأيت خيال أشرطة متدلية فوقي، وقد حل بي دوار مفاجئ وأنا أحاول التماس الواقع لأجد سبيلي وأخرج من خضم هذا الوجود الغريب، وكانت الكلمات تتشابك حولي حيث سمعت بعضها يقول:

- 900 ميلي أمبير

- جاهزة.
- جيد انتظر حتى يفقد الوعى.
- حسناً التجربة الثامنة،....

لم أعد أسمع شيئاً، وحلّ هدوء مفاجئ مع طنين داخل رأسي.. ها أنا أجلس على الكنبة في صالة منزل أعرفه، لا أستطيع الحركة جسدي مقيد في مكانه وأشعر بارتخاء عضلاتي التي تمنعني من النهوض واستكشاف المحيط.

- كيف حالك اليوم؟

جاء صوته الخشن ليشيح نظري عن الصور الخاصة بي المعلقة على الجدار، ثم وضع يده على يدي وكأنه يشعر بما أعانيه.

- أنا جارك فيصل، هل تذكرني؟ وهذه هاجر زوجتي حضرت لك بعض الحساء.

لا أعلم سبب وجودهما في المنزل الذي يبدو أنه ملكي، لكن يبدو أنهم أناس لطفاء، لكن هل أعيش وحدي هنا؟.

- أعتقد أنك جائع، سأجلب ملعقة وأساعدك على تناول الطعام، ما رأيك؟.

لا أستطيع التحدث معه لكن أظنه فهم حقيقة جوعي بعد تجربتي البائسة للابتسام، وربما اعتاد على مساعدتي في الطعام حتى أدرك حاجتي الملحة له، بينما كانت هاجر تتنقل عبر الغرف وهي تقوم بترتيب الأثاث ومسح الغبار وتنظيف الصور المعلقة.

أشم رائحة العطر بالزهور الجبلية الجميلة، تداخلها رائحة كحول مزعجة بعض الشيء لكن لم أبال بها فأنا أتضور جوعاً وأنتظر قدوم فيصل بالملعقة.

- الحساء لذيذ سيعجبك.

قالت هاجر وهي تتصنع الابتسام في تعبير عن ودها ونظرات الحزن تعتلي وجهها ، أو ربما كانت نظرات شفقة، لا أدري لكنني أدركت أنها تحاول الإسراع قدر الإمكان في تنظيف ما حولها والمغادرة، رغم أن المكان يبدو هادئاً ومرتباً وتستطيع عبر مدخل بابه المزخرف رؤية خضرة الأشياء خارجاً، وأصوات الطيور تغرد مرحة تعبر عن غبطتها، والتي أعتقد أنها تقفز من غصن إلى آخر مثل عيني اللتين تريدان أيضاً الخروج من جسدي المتخشب.

قطع فيصل حلقة الوصل بين روحي الهاربة وجسدي المشلول بعد أن جلس قربي وبدأ بمحاولة إطعامي، لم أستطع تحريك فمي للمساعدة لذا فقد دفع الحساء عبر شفتي كنت أدقق على هذه التفاصيل الصغيرة كي أحرّض ذاكرتي على استجماع أكبر قدر من المعلومات، في محاولة لاستلطاف الأمل وإيجاد منفذ لضياعي.

تتراكم المشاهد في رأسي وأنتقل من صورة إلى صورة مثل الأفلام القديمة، تتنوع الروائح والأصوات والأحاسيس، لا أدرك كيف فقد قلبي ذاكرته حتى باتت جميع المواقف سواسية، لا أشعر بشيء بتاتاً لأتمكن من تحليل الصور التي تنهمر تباعاً، تلك الصور التي تحمل كل منها ممرات للخروج وتقصي الحقائق، أو ربما الأوهام فأنا لم أعد أميز بينها وإلى أي مدى تماديت في مخيلتي حتى صار لكل الآلام والضحكات الطعم ذاته.

"أشتهي التلذذ بأي شيء، بنكهة الهواء التي تلفح وجهي، بطعم الماء أو حرارة الحساء الذي يحاول

معي فيصل جاهداً في سبيل إطعامي، لو قدرت على الحديث لأخبرته بوجوب أن يدعني وحيداً، فلا فائدة ترجى من معاندة الحياة والكفاح للبقاء، لمجرد البقاء".

خطرت الكلمات في ذهني وكأنني أخاطب فيصل الذي توقف لبرهة وأخذ بالتمعن بي، ثم أشار لزوجته هاجر لتقترب كأنني مادة خصبة للمشاهدة. كان صوته واضحاً حين همس لها:

- عينه.
- نعم أرى ذلك.
- هل يجب علينا الاتصال بالطبيب؟.
- لا أعلم لكن من الأفضل إعلامه بحاله.

انسحب فيصل خارج المنزل بينما وقفت هاجر على الباب، كان يتحدث عبر هاتفه المحمول إلى الطبيب حيث يرسل له تقريره التفصيلي عن تطور حالتي.

"لا أعلم ما يجري فعلاً، وأنا لا أشعر بأي تغيير يشوب نظري، حيث تبدو الأمور واضحة جلية لي وعيناي تقفزان من مشهد لآخر على امتداد المكان".

أنهى فيصل مكالمته ثم توجه نحوي مشيراً لزوجته بالبحث عن قطعة قماشية، ثم جلس بقربي وأخرج منديلاً ورقياً من جيبه وبدأ بتمريره على خدي وأفزعتني كمية ولون الدماء التي نزفت من عيني، فقد كانت قاتمة للغاية وقريبةً للسواد، وغطت المنديل الأول كاملاً ليسحب فيصل عدة مناديل أخرى ويتابع مسح خدي، بينما شعرت ببعض الدوار المترافق بضغط شديد فجائي على صدغي، وأحسست أن رأسي سينفجر لولا أن الدم وجد سبيله للخروج من أنفي وعيني، جاعلاً أنفاسي تتقطع وتختنق بشكل مرهق.

كانت خطوات هاجر المسرعة وهي تجلب القماش ثم الماء تزيد الضغط علي أي صوت يحدث الآن يقتلني ولا أستطيع تحمله، وفيصل الذي استمر بوضع المناديل والأقمشة لم يتمالك نفسه، لينهض واضعاً جسدي على ظهره وينطلق نحو الشارع بأقصى سرعة، مشيراً للسيارات العابرة التي أبت أن تتوقف حين رأت الدماء تغطينا نحن الاثنين، خاصةً مع وجهه المكفهر ولهاثه السريـع.

- تكسي، تكسي، توقف أيها الحقير.

وضعني على الأرض وهو يصرخ بالسيارات العابرة وينادي على هاجر لتجلب هاتفه، لم أعلم أين هي حيث كان الدوار وأصوات المحركات والفرامل لكل الآليات التي لا تتوقف تزيد انهيار وعيي، فلم أعد قادراً على تمييز الأشياء واسودت المناظر أمامي، حتى الصوت صار طنيناً كأثر انفجار سيارة أو قنبلة في أحد الأفلام، حين تمر اللحظات الأولى على البطل وهو يجمع شتات نفسه، ولا يدرك أين هو وماذا حصل.

- نعم، حصل تطور سيئ، أريد سيارة إسعاف على الفور أرجوك

من صدى الصوت عرفت أن فيصل كان يتحدث مع الطبيب، ذلك الصدى الذي ترافق في تلك اللحظة مع نبضات قلبي العالية، وأنا أتعلق بكل ما أوتيت من خوف بالحياة، رغم أنني قبل وقت قصير كنت أريد الخلاص لروحي، لكن التعلق بالبقاء لا يمكن لأحد تفسيره حتى ولو كان في أقصى درجات اليأس، وتظل تلك اللحظة الفاصلة بين الفقد والوجود خيطاً أوهن وأدق من بيت العنكبوت وفي الوقت ذاته هائلة ومؤلمة للغاية.

اختفت الأصوات تماماً وعم هدوء طويل لا أفهمه فقد كثرت لحظات التقلب هذه بين ما هو حقيقي وبين ما هو تجميل للذكرى بين ما هو وليد المصادفة وبين ما علق في مخاض الأمنية، وتتقافز اللحظات تعزف الفراغ المحيط بكياني ويتملكني شوق أعمى للنور، وأتوسد السلام المرافق لقلبي كأنني في مهد طفولة، وبياض الأغطية حولي أجمل من أن يكون كفناً لهذا السلام. لم تمض فترات الصمت كثيراً حتى عدت أسمع مجدداً أصواتاً ترعد وتضرب حولي وأنا أنصت بكل جوارحي.

"يبدو أنها قادمة من السماء، يبدو أنها ستمطر قريباً!!.

بأنفاسي المتقطعة يمس الحنين أضلاعي فتعطر أوراق الليمون داخل رئتي نبض قلبي الغارق في النعاس، ليعود الرعد ويجفل نومه الأبدي المشتهى ويعكر صفو خلوده. المنتظر كل قطعة من جسدي كانت لها وجهتها أشعر بغليان أوصالي الباحثة عن ملجأ مما يُعد لها الغياب من أسى، وفي تلك اللحظة استسلمت لعناد جسدي المحارب الجائع للتلذذ بالحياة.

- حاول مجدداً
- ابتعدوا !
- هناك نبض.. هذا جيد.

جاء ذاك الرعد على هيئة شحنات من الكهرباء التي تصعق جسدي، ولا يمكنني وصف وحشيتها، لكنني أشعر بقدرتها على حملي للأعلى وقذفي مجدداً دون رحمة، وقد ترافقت مع صوت متواتر لرنين أحد الأجهزة، بينما اجتمع حولي العديد من الأشخاص ورحت أسترق السمع لخطواتهم المستعجلة ولهاثهم البارد وهم ينظفون وجهي بقطع من القطن المعقم، لقد تداخلت رائحته مع رائحة الليمون دون أن يفسح لي المجال للرفض.

انكمش الوقت وتداخلت الحقائق مجدداً وصار لزاماً على قلبي الخضوع لجرعات السوائل التي تنساب عبر وريدي، فتارة أشعر بضيق في النفس وتارة يجتاح صدري هواء يُطيّر قصاصات الذكريات داخل رئتي.

"لا ألم بعد الآن، يريدون تخديري كي أستمر بالضياع في متاهة مشاعري في فخ انعكاسي على مرايا فرح خادع".

أحتاج للنهوض من هنا من قيد هذا المكان الجنوني لكن يستحيل علي اختلاس النظر وأنا لا أقدر على فتح عيني بعد أن أجبرهما المخدر على الالتزام بالصمت ولا يوجد سوى هذا النور الذي يغطي جفني ويموج بفكري لرؤية خيالات الناس القادمة والمغادرة. يمضي الوقت بطيئاً للغاية وأخشى الاستسلام للنوم وللحلم.

- كيف صارت حالته أيها الطبيب؟
- ما زال في غيبوبته منذ أسبوع.

جاء الصوت مألوفاً وهو يحدث الطبيب الذي بدا مشرفاً على حالتي.

- ألا توجد أي مؤشرات على التحسن؟
- كل شيء بيد الله، ونحن فعلنا ما يمكن فعله، لقد خسر الكثير من الدماء بعد نوبته الأخيرة ولا نعلم حتى الآن سبب ذلك.

كان ذلك صوت فيصل محملاً برائحة غريبة ومألوفة أيضاً، كأنه قادم من البرية حيث علقت على ملابسه رائحة الأغنام، ورائحة الحطب المشتعل.

ارتعش جسدي وكأن برودة المكان تغلغلت داخله، كنت أريد تصديق ذلك لكن بعض الصور التي عبرت أمامي للخراف المسعورة، للطبيب القاتل لهاجر التي تركتها خلفي وأنا أحمل خوفي وأهرب بعيداً.

"لا أستطيع افتكاك الحلم من الواقع مهما حاولت لا وجه للحقيقة سوى اختلاج مشاعري الحالية، سوى رفضي الدائم لاكتشاف سر هذا العذاب وهويتي المفقودة".

تعتاش عجلة الوقت على خلايا اليأس المعششة داخلي، ويئن الخيال معانقاً ما علقت من صور للحياة على جدار الماضي وما نسيت، قد تأتي اللحظة التي أكفر فيها عن سوداوية أفكاري أتكئ على النور، أغرف من النور وأبتعد عن ممالأة الظلام؛ كي لا أضمحل في قاعه عالقاً كالجذور التي لن ترى الشمس مطلقاً.

في متن هذا الفقد كم أشتهي مفاوضة الموت على بضع لحظات أستدل بها إلى من أكون، لكن كم الأحاديث والصراخ خارج هذه الغرفة يقطع سلسلة أفكاري، ويذرو الضجيج كل مساومة أفتعلها للنجاة بنفسي.

- حالته تصعب على الجميع، ليس هيناً ما مر به للأسف.

قاطع كلمات فيصل الخارجة من قلبه دخول بعض الأشخاص إلى الغرفة محملين بالضجيج المزعج.

- هل هناك تحسن؟
- ما زلنا بانتظار نتائج التحاليل.

أعرف صوته جيداً، فقد جعل نبضات قلبي تضطرب دون أن أفهم السبب، بينما يقترب صوبي شبحه ويخيم ظله فوقي كالسحابة، ثم يعاين عيني بتوجيه ضوء مصباح صغير داخلهما، لم أتأثر بكم النور الذي يعيق رؤية شبح ذلك الطبيب، فقد وضعت كامل تركيزي في محاولة اكتشاف سر ارتعاشي وخوفي بعد الإنصات لكل حرف يتلفظ به لكل نفس جارح يخرجه لكل لمسة سامة أشعر بها تجرف برودة مسام جلدي وتحرقه.

- ما أن تظهر التحاليل أرسل لي النتائج.
- نعم بالتأكيد.
- استمروا على البروتوكول العلاجي نفسه، وقد نحتاج صورة جديدة للرأس.

أكد له الطبيب الآخر الأمر وكأنه يتلقى أمراً عسكرياً لا رجعة فيه.

"يبدو أنه أحد الأطباء المقيمين المتأهبين للعمل بأوامر قادتهم ورؤسائهم الأكثر خبرة وقدماً، الذين يصقلون تجاربهم ويخوضون غمار التجارب مجبرين على مواجهة كل أنواع الانكسارات والآلام، لينتهوا مثل قوالب جاهزة تتعامل مع الإنسان كحالة مرضية وتعليمات وأرقام لا أكثر"

استمر اضطراب قلبي الذي كان يرتفع مع صوت الجهاز المراقب لحالتي كإنذار بوجود خطأ ما يجب التعامل معه، لكن لم يبال أي منهم بما يحدث، بل شعرت بأن الطبيب صاحب الصوت المألوف حاول إتمام مهمته والخروج بسرعة، فقد كان يتهامس مع أحد الأطباء المرافقين له لينادي بعدها فيصل للحاق بهم خارج الغرفة. لم أستطع استراق السمع رغم محاولتي التركيز قدر الإمكان على أي تفصيل يشرح ما أصابني وكيف انتهى بي الأمر هنا. مرت الدقائق ثقيلةً وأنا أنتظر عودة فيصل دون أي إشارة على وجوده، لذا توقعت أنه لن يعود، بل ربما حمل رائحته وصوته وقلقه وغادر، وبقيت وحدي رفقة الطبيب

المقيم الذي كان يسجل بعض الملاحظات قبل أن يخرج أيضاً وأبقى وحدي في فضاء الغرفة المعزولة عن الضجيج مع اختفاء الجميع صرت ملزماً بتخطي الوقت وحيداً أستجمع قوتي لتذكر صاحب ذلك الصوت. لا أعلم حقيقته فكل ما أدركه أن مجرد الإنصات لذاكرتي الصوتية يجفل كياني بأكمله، ولا أجد متسعاً من الخوف لإضافة خوف جديد في حياتي الهشة، في انكساراتي وضياعي واندثار الحقائق.

"إلى متى يستمر مفعول هذا المخدر الغبي يجب علي القيام بشيء ينقذني من هذا السجن"

انقطعت سلسلة الأفكار ودب الرعب بقلبي حين تم إطفاء الضوء، وتحت جفوني المنسدلة لم أعد قادراً على تمييز أي حركة حولي، بل صرت محاطاً بالعتمة الموحشة وأتحسس ثقلها على صدري كأن هذا السجن أطبق علي وأنا ألتقط أنفاسي، لا وجود لأي كائن يهدئ روعي، وحتى الخيالات العديدة التي حاولت افتعالها لتخفيف اختناق رئتي لم تطل البقاء أكثر من بضع ثوان فقد فرّت هي الأخرى من سواد المكان، وبقيت وحدي ألتمس وجودي وأشتهي ثلمة ضوء أسند عليها خوفي.

- صباح الخير، نعم نعم لقد جاء البارحة الدكتور سعيد للكشف على المريض أيضاً، نعم أعلم ذلك، ولكن كنا بانتظار نتائج التحاليل فقد أرسلناها في وقت متأخر.. حسناً سأخبرك بالتأكيد.

"سعيد!! لقد ظننت أنني استطعت أخيراً إقناع خيالي باختلاق بعض الحياة حولي لولا أن أحدهم كان يجري اتصالاً عبر هاتفه المحمول متابعاً تفقد الأشرطة المغروسة في جسدي، وتسجيل الملاحظات عن تطور الحالة. لا أعلم كيف مضى الوقت وربما غفلت للحظة ونصب لي الليل كميناً أوقعني في شركه حتى مجيء الصباح".

"من هو سعيد ولم كان وقع هذا الاسم ثقيلاً للغاية!!؟".

تتفشى الصور داخل صدري كالفايروس، وتسقط بعضها على رأسي محملةً بالدماء والزجاج، ثم يفتح الباب الذي تراءى لي أن له صريراً حاداً كاحتكاك عجلات سيارة تحاول فجأةً التوقف، ليتقدم عبره بعض الأشخاص الذين بدأ أحدهم بتحسس جسدي

وفحصه، شعرت ببرودة سماعته التي وضعها على صدري وكأنه يريد استراق السمع لما يدور في خلدي عن محاولتي الهروب من هذا الأسر المرعب ومن جرعات المخدر التي استوقفت كياني بأكمله، لذا فقد رحت أدندن بعض الألحان الغريبة كي أشتت سمعه وأفكاري.

- اهدأ!.

"إنه الصوت ذاته، إنه سعيد".

تجمدت عروقي وانطفأت الموسيقا في صدري وتوقف الوقت، وبدأت أرتجف كأنني سقطت في حوض من الثلج لدرجة أني لم أجرؤ على التنفس لعدة ثوان والسماعة تتفقد كامل منافذ رئتي بحثاً عن خاطرة مكسورة أو حلم ضائع هنا أو هناك. لم يبال سعيد بانقطاع الهواء، بل أشعل مجدداً مصباحه الصغير وتفحص كلتا عيني قبل أن يطبقهما ويبتعد بعد أن جاء صوت من خلفه يحدثه:

- هذه التحاليل أيها الطبيب.
- شكراً.

استغرق بعض الوقت في القراءة، ثم تنهد تنهيدة هائلة وأطلق العنان لتعليماته التي وجهها كما أعتقد للطبيب المقيم المنصت بكل جوارحه لكلام معلمه.

- أنزلوه إلى قسم الأشعة لأخذ صورة جديدة للرأس.

أعتقد أنه أومأ بالإيجاب فلم يتلفظ ببنت شفة، لا أدري إن كانت علامة قبول واحترام لشخص الطبيب أم خضوع وخوف مبطن لم أبال بنوع العلاقة التي تجمعهما خاصةً أن سعيد غادر مستعجلاً كالمرة السابقة وهذه المرة رفقة الطبيب المقيم.

"ليتني أستطيع التحدث معه كي أريح قلبي من كم هذا القلق الذي يخفيه صوته".

كل تلك الأمنيات لا تنفع مع المخدر الذي يتغلغل في جسدي، وفاقداً للأحاسيس كنت كقطعة خشب تطفو على الريح أطير كأرجوحة حاملاً بؤس اللحظات المرافقة لوجودي. أحك جلدي بالهواء وأعانق حبال الأمل المعلقة كمشنقة، أريد الخلاص لروحي مجدداً ويصر جسدي على البقاء.

"أي رسالة يحملها عناد البقاء والتشبث بالخوف!".

جاءت بعض الخطوات الهادئة، لتفتح الباب وتدخل دون أن تصدر أي صوت في البداية، وشعرت ببعض الهمسات الناعمة كأنها تؤكد على التزام الصمت كي لا تقلق راحتي.

- ربما كان نائماً.
- لا نعلم ذلك فعلاً.
- أتمنى له الشفاء من هذا العذاب، فقد كان من أفضل جيراننا.

كانت تلك همسات فيصل وزوجته هاجر اللذين حاولا ألا يصدرا أي صوت يقلق راحتي، الجيرة الطيبة نعمة من الله حقاً.

" لم لا يوجد أحد آخر يزورني؟ هل عشت وحدي دائماً؟".

لم يشأ فيصل جعل خيالي الخصب يغوص في الأفكار، فقد قاطعني ببعض كلماته المريبة وهو يتبادل أطراف الحديث مع زوجته.

- نجا من الحادث بأعجوبة، وما أصابه ليس بالأمر الهين.

- أعلم ذلك، لا تزال ضحكة مها وأحاديثنا التي لم تكن تنتهي عالقة في رأسي.

تنهدت هي وأنا ارتعشت أطرافي وبدأ جسدي بالانتفاض بشكل مخيف، لا أملك سيطرة على ما يجري فكل ما يشغل بالي الآن كلمات هذين الجارين.

" أي حادث؟ ومن تكون مها؟".

تعبر في ذهني بعض الصور المتكررة للدماء والزجاج التي لا أجرؤ على الوقوف عندها، لا أريد أن أستسلم للألم لكن يتجدد مرور اسم مها أمامي فأشعر بقلبي وكأنه يريد الخروج من مكانه، وسكاكين تطعن ذاكرتي وتصيبني بصداع مرعب، وأنفاسي تتقاطع مع أصوات الجهاز الموصول على جسدي والذي يقيس على الأرجح نسب معاناتي ويسلسلها كرقم ما في السجلات مثل تجربة لعينة لا تنتهي. ليقتحم الغرفة على إثر صوت الجهاز بعض الأشخاص وأظنهم ممرضين أو أطباء.

- ماذا حصل؟
- لا نعلم لقد انتفض فجأة وبدأ بالصراخ.

أرجو منكما الانتظار في الخارج. غادر فيصل وهاجر وبقيت وحدي أحاول تذكر اللحظة التي صرخت بها. أنا أصرخ داخل قلبي وعقلي ولم أفتح فمي للتعبير عن كم ما أشعر به، لا أريد فضح معاناتي أمام الجميع.

" ربما خانني جسدي الضعيف!!".

كانت السوائل تجري عبر يدي من الحقن العديدة التي كانت تخدش جلدي، لقد كانت تغزني من الداخل كحروق خفيفة، ولم أعرها انتباهاً فقد أوليت اهتمامي لصوت الطبيب المألوف الذي يتناغم مع حجم الصداع الذي يفتك في رأسي، لقد جاء صوته هذه المرة غليظاً وهو يطلب زيادة جرعة المهدئ، دون أن يكلف نفسه إتمام الفحص بشكل دقيق لمعرفة ما يجري تماماً، لذا وكردة فعل ولأنني لا أريد لجسدي الاستمرار في انفصاله عني تمكنت من إمساك يد الطبيب الذي أراد أن يعطيني تلك الحقنة، ونهضت بكل ما أوتيت من القوة وأسقطتها من يده وأنا أسمع صراخي الذي ملأ

أروقة المكان. ورأيت وجوه الأشخاص الذين وقفوا حولي يحاولون تهدئتي.

- إنه أنت!

أجفل الطبيب الذي عاد للخلف بعد أن تجمدت عيناي عليه، وقد حاول التملص من الأمر بعد أن أشار لطبيب مقيم مرافق له بالاهتمام بي، ثم خرج فجأة وسط استغراب الممرضين والطبيب المقيم، لم أرد أن أشيح بنظري عنه لكنه وقف قبالة الباب في الخارج وأجرى اتصالاً بهاتفه المحمول، وكانت تبدو عليه معالم القلق الكبير.

- اهدأ يا جاسم نريد أن نخفف الألم، لن تضرك الحقنة.
- لا .. لا أريدها، أنا أريده، هو!

كان الجميع يتبادلون نظرات الاستغراب بينما دخل مجدداً فيصل للغرفة تقف خلفه زوجته، بينما كنت أرفع يدي مشيراً للباب حيث غادر ذلك الطبيب.

- هل تقصد الدكتور سعيد؟
- سعيد؟ اسمه سعيد!!

وضعت يدي على رأسي وبدأت بالصراخ، لقد اتضحت فجأة الصورة أمامي، عادت صور الحادثة

ذلك الصباح، السيارة المسرعة التي صدمتنا وهربت أمي وغاليتي ،مها، لكن عقلي مشتت ولا أعي شيئاً بعد الحادث فكل ما تتشبث ذاكرتي به هو صورتهما والدماء والزجاج يغطي وجهيهما، ووجه سعيد برفقة شخص آخر بعد أن توقفا للحظة لمشاهدة ما حصل قبل أن يفرا من المكان.

- نعم إنه الطبيب المشرف على حالتك، لكن اهدأ الآن كي نستطيع إعطاءك الدواء.

كانت الدماء تغلي داخل جسدي، لا أعرف مكان مها وأمي وسعيد فر مجدداً.

- أين زوجتي وأمي هل هما بخير؟ تكلم!.. قلت وأنا أمسك يد الطبيب بقوة كبيرة أريد معرفة ما يجري.
- انتظر يا جاسم سأخبرك، لكن أرجوك أن تهدأ.

لم أكن قادراً على استيعاب الحقيقة، لكن صوت فيصل القلق الحنون وإمساكه بي خففا وطأة جنوني لذا فقد أفلت الطبيب دون أن أسمح له بإعطائي حقنة المخدر فأنا أعي أخيراً أين أنا وأريد كشف المستور عما يخفونه.

ربما أشار فيصل له بالانسحاب من الغرفة رفقة الممرضين كي يهدئ من روعي قليلاً، فغادر الجميع المكان وظللت وحدي رفقة هذين الجارين.

- هناك شيء يخفونه علي بالتأكيد، وأريد رؤية أمي ومها الآن.
- هذا من حقك بالطبع لكن اهدأ قليلاً ليتسنى لي شرح ما يجري.

تحاملت على نفسي قليلاً رغم أن جسدي ما زال يرتجف ما زال دمي يحرقني من الداخل، لم أعهد نفسي بهذا الغضب ولا أعلم كيف وصلت إلى هذه الدرجة من فقدان السيطرة على مشاعري.

- تكلم يا فيصل

أخذ نفساً عميقاً بينما أمسكت زوجته كتفه، ثم بدأ الحديث:

- قبل سنة ونصف السنة تعرضت لحادث مؤسف رفقة زوجتك ووالدتك، لم يكن الحادث هيناً وتم إسعافك بعدها للمستشفى، للأسف لم تنج مها والوالدة منه.
- ماذا تقول؟!.

- اهدأ دعني أكمل أرجوك...

لم أتمالك أعصابي لوقع الكلمات القاتلة التي يقولها، لكن نظرات الحزن التي علت وجه زوجته أكدت الموضوع، خاصةً أنها ذكرت سابقاً انكسارها لخسارتها لمها، لذا حاولت أن أستوعب الأمر قدر الإمكان وأفسح المجال له بإتمام الحديث.

- ماذا حصل بعد وفاتهما؟ وأين كنت أنا؟.
- لم تغادر المستشفى، في الأشهر الستة الأولى كنت في حالة غيبوبة، وما أن استجبت للعلاج وصحوت بعد أن قطع الأطباء الأمل بنجاتك حتى دخلت في غيبوبة من شكل آخر.
- ماذا تقصد؟.
- لقد ظهرت عليك أعراض شديدة لحالة ما بعد الصدمة ولم تكن تعي ما حولك، وكل مرة تتذكر بها موت أحبابك كنت تدخل في هيستيريا مخيفة، ويضطر الأطباء بعدها لإعطائك المهدئات التي أصبح نوعاً ما بروتوكولاً دائماً في حياتك وعلاجك، لذا وصلت المرحلة لم تعد معها تقدر عضلاتك على الاستجابة بسبب قلة حركتك وكان الخوف أن تصاب بالعجز الدائم

عن الحركة، لذا فقد كان المقترح إخراجك من المستشفى ومتابعة العلاج في المنزل.

- كم بقيت في المنزل؟
- لقد عدت هنا بعد أقل من شهر، وأخرجتك عدة مرات بعدها لكن في كل مرة تتطور حالتك ونضطر للأسف إلى إعادتك لإجراء المزيد من الفحوص، أو لإنقاذك من اختلاج ما.
- لا أذكر شيئاً من هذا...
- نعلم ذلك، وبالمناسبة إنها المرة السادسة التي نعيد عليك هذا الحديث، فقد كان وعيك يعود لبعض الوقت قبل أن تعاودك الهلوسة بأمور غير قابلة للتصديق، وكل ذلك من وحى خيالك، لقد استمعنا لقصصك أنا وزوجتي كثيراً لكن أريد أن تعلم أنه ورغم قسوتي في الإفصاح عن حالتك بتفاصيلها، إلا أنني أعلم أنه من حقك معرفة الحقيقة ولا أقصد أن أزيد ألمك مطلقاً.

عادت الكثير من الصور العالقة في ذهني التي كانت أغلب الوقت تقتحم اللوحة الكبيرة المشوهة في حياتي، لتسرد ما كان يحصل في الكثير من الزوايا المخفاة داخل خوفي وعادت معها وحوش الخيال

الضارية التي تعتاش على ضعفي لتتحرك بحريتها حولي على جدران الغرفة، كل حديث كان يسرده فيصل كان يُرجع جزءًا عالقاً من ظلامي المفتعل وقتالي مع الشر وسريان النور في أنحاء كياني، عبرت أمامي صور محطمة لأبي وأمي وجسدها المرمي خلف الباب بوجهها المهشم وشممت رائحة الليمون والنار وحتى التراب ذلك التراب الذي شكل قبراً داخل قلبي وغرفتي حين كسر كل لحظات الأمل والحب والحياة كاتباً اسم غاليتي مها على شاهدة من رسم خيالي.

ملايين الأسئلة ما زالت دون أجوبة، ورأسي المرافق لصوت أجهزة القياس داخل الغرفة عبارة عن قنبلة موقوتة أخشى انفجارها فتشتت كل جزئية عانيت الأمرين لجمعها والوصول إلى الخلاص لروحي.

- رأسي سينفجر، لا أتذكر الحادث تماماً فقد علق بذهني ذلك الحادث رفقة والدي وأنا صغير. كنت صغيراً جداً على ذلك الألم!.
- كان ذلك في السابق منذ طفولتك أعلم ذلك، لكن...
- لكن ماذا؟!.

- لم تفصح سابقاً لنا عما جرى، وكأنك منذ الحادثة الأخيرة عالق مع والدك تخشى تصديق وفاة مها ووالدتك تدفع بالأسباب التي تعينك على تجاوز محنتك وتخفيف إحساسك بالندم على ما جرى.
- هل تقصد أنني كنت السبب في فقدانهما؟.
- لا أعرف لكن حين استيقظت من غيبوبتك في المرة الأولى ذكرت أن هناك من تسبب بحادث سيارتك وأنه ارتطم بك، رغم أن من وجدكم قال إن سيارتكم ارتطمت بعمود الكهرباء على جانب الطريق ويبدو أنك كنت مسرعاً للغاية، دون أن تظهر أي علامة على وجود سيارة أخرى!.
- لا أعلم، لا أعلم، لكنهما كانا هناك، كأنني أراهما الآن سعيد وأدريان
- من أدريان هذا؟.

لم أعد قادراً على تحمل ذلك الاستجواب، لكن كما يبدو فإن فيصل وهاجر يجهلان تماماً ما أتحدث عنه، يجب أن أتمالك نفسي كي لا يظنا أنني عدت إلى أوهامي، يجب أن أبحث وحدي وأجد دليلاً يثبت تورط سعيد بالحادثة.

أعتقد أن علينا المغادرة لتستريح بعض الشيء. قالت هاجر التي شعرت بأنني بدأت بالانزعاج من الحديث، ثم نهضت وهي تشير لفيصل بالخروج الأخير الذي كان يريد أن يتابع إثبات وجهة نظره بأن خيالاتي واهية ومجرد سراب.

- نراك غداً حاول أن تتماسك قدر الإمكان وتعاون مع الأطباء فهم يبذلون أقصى جهدهم لكي تتعافى.

خرج الاثنان دون أن أبادلهما أي عناق بالأفكار أو المشاعر، دون أن أصرح عن حجم الإحباط الذي أحاط بي مترافقاً بالألم الذي يتآكلني من الداخل، خسرت أعز اثنين على قلبي وقد أفشل مجدداً في استعادة تلك الذكريات التي عشتها معهما، خاصة إن استسلمت للتخدير الذي سيهرب بي من الواقع إلى حيز تم رسمه في فضاء اللاوعي الخاص بي، يجب أن أهرب من هنا لكن هزالة جسمي تمنعني من الحركة، وليس بيدي حيلة سوى أن أتوازن قدر الإمكان وأثبت قدرتي على المضي بسلام دون أي مساعدة من هذا المسلخ البشري.

غفلت عيني وسرقني النعاس وأنا أضع بعض الخطط في محاكاة لبعض المشاهد التي يمكن أن تجري لاحقاً، وكانت ليلةً هادئةً للمرة الأولى منذ وقت طويل حيث استيقظت على صوت الأذان الذي ينعش الروح، وكان قلبي رغم كل انكساراته راضياً بمصيره وفي قبول تام لقضاء الله وقدره، ومع شروق خيوط الشمس الأولى وارتسام أشعتها داخل غرفتي المطلة على مزارع من النخيل الذي تظهر أطرافه العالية من بعيد دبت الحياة داخل أروقة المستشفى حيث يقوم الممرضون والأطباء المقيمون بجولاتهم التفقدية الصباحية للاطمئنان على المرضى وإعطائهم جرعات الأدوية في أوقاتها المخصصة. كان الجميع ينتظرون وصولهم إلا أنا فقد كنت على أتم الاستعداد لمنعهم من إعطائي أي جرعة مهدئة، لقد أخذت هذه الليلة جرعة أمل كبيرة بالله ولا أريد التفريط بها. كل ما أشتهيه هو الخروج فقط وأنا في كامل، وعيي وحزني وخسارتي.

- صباح الخير.

اقتحم سلام أفكاري الممرض الذي يحمل لائحة ورقية وبجيوب محملة بالأدوية.

- كيف حالك اليوم؟ يبدو أنك صحوت باكراً، هل تشعر بأي ألم؟

استمر بمحاولة افتكاك بعض الكلمات مني وافتعال حديث صباحي عابر دون أن أبادر للتواصل معه بأي شكل، ثم وقف يعاين الأجهزة ويراقب ضغطي ونبضات قلبي، لذا لم أظهر أي توتر يجعله يشك بما أخطط له، بل قمت بخداعة لدرجة أنه أبدى استغراباً من عدم محاولتي إبعاده عني. لقد كان تركيزي وهدوء ملامحي منصبين على علب الدواء في جيوبه حيث كنت أستجمع طاقتي لمنعه إن جرب إعطائي أي عقار مهدئ، ومضت اللحظات بطيئة للغاية وأنا أخشى أن تتورط دقات قلبي أو لهاث رئتي بفضحي. لكن أشكر الله أنه انتهى أخيراً وغادر الغرفة دون أن يحتاج الأمر للقيام بأي حركة درامية.

كانت أصوات الناس في الخارج تعلو كلما تقدم الوقت.

لا أحد يفكر في اقتحام خلوتي وقد بدأت أشعر بالجوع قليلاً، ولا أستطيع المغامرة بلفت الانتباه لخروج أعصابي عن السيطرة، فقد تم تشخيصي

واتهامي مسبقاً بأنني مضطرب. لا يعلمون أنني أكثر الناس توازناً في خضم هذا الجنون. أجرب إعادة بناء حياتي على أطلال الخسارة.

ازداد الضجيج خارجاً بينما رأيت قبضة الباب وهي تفتح قليلاً قبل أن تمتد يد ترتدي مريولاً أبيض. بدا كأنه طبيب وهو يدخل وظهره للخلف كأنه يتسلل للداخل خلسة؛ لذا أغمضت عيني مدعياً النوم كي أعرف ما يخطط له هذا الغريب الذي قام بإغلاق الباب والاقتراب مني، لكن كانت هناك خطوات أخرى ترافقه رغم محاولته عدم إصدار أي صوت.

- هل أنت واثق أنه تعرف عليك؟!.
- نعم لقد صرخ بوجهي البارحة وللمرة الأولى، رغم أنني عاينته سابقاً أكثر من مرة وكانت ذاكرته مغيبة تماماً.
- لقد قلت لي لا أمل له بالشفاء فقد تعرض دماغه لضرر كبير.
- وأنا مثلك حاولت التماسك البارحة وانسحبت من المكان.

كانت كلماتهما في أذني كرصاصة تخترق رأسي وأفكاري، لم أعد قادراً على استيعاب ما يحصل، لقد كان ذلك سعيد بالتأكيد لكن الصوت الآخر أجهله وأخشى أن أفتح عيني فيعلمان أنني كنت أسترق السمع.

- أريد أن أتحقق من شيء ما.
- ماذا تريد أن تفعل ؟!
- هات مصباحك.

اقترب صاحب الصوت الغريب وفتح عيني هذه المرة كانت مختلفة فقد شعرت بألم الضوء القوي لذا ورغم محاولتي تثبيت نظري نحو الضوء إلا أن شدة الوجع واحتراق الدمع في جفني جعلاني أغمض، ثم فتحت مجدداً ورأيت الشبح الثاني الذي أجفل صلابتي، لم تكن ملامحه واضحة في البداية بسبب الضوء المنعكس لكن ما أن اتضحت الصورة حتى ظهر بكامل وحشيته واقفاً بكل جرأته أمامي رفقة الطبيب سعيد. ثم بدأ بالتحدث معي:

- هل تعرفني يا جاسم؟

جمدت عروقي ونشف اللعاب داخل فمي ولم أستطع في البداية التكلم، لذا كرر سؤاله ليطمئن نفسه ويخرج الوهم من رأس رفيقه القاتل عن كشفي لهويته.

- ربما كانت مجرد ردة فعل وانتكاسة يا سعيد، لا يمكن لأحد النجاة من حادث كهذا.
- لكنني غير مطمئن.
- سأقنعك إذا...

توجه صوبي مجدداً أدريان وبدأ بالتحدث معي كأنه يتحدى تحملي وعدم إفصاحي عن النار التي تستعر في عروقي للانتقام منهما.

- هل تعلم يا جاسم أننا كنا نستطيع إنقاذ زوجتك وأمك؟ لكن كان علينا أن نختفى من المكان بسرعة كي لا نتورط وتتسخ سمعتنا، فذلك سيكلفنا الكثير من المال.

كان يتحدث بنبرة الشيطان أدريان نفسها، بسخريته وبشاعته وشهيته الدائمة ليعتاش على الخوف وعلى الضعف، ثم استمر بحديثه:

- لقد غادرنا فوراً بعد صدم سيارتك، وكنت أنوى أن أتصل بالإسعاف فوراً لكن سعيد كان متوتراً للغاية ولم يسمح لي بإجراء تلك المكالمة حتى ابتعدنا مسافة كافية نحن نشعر بخسارتك ففقدان زوجة بذلك الوجه الجميل... يجب أن أعترف لك، إنها لخسارة كبيرة.

خرجت تلك الكلمات منه بلغة قذرة لا تدل سوى على وحشيته وخبثه وليس فيها أي ذرة من الأخلاق والإنسانية. لذا لم أتمالك نفسي في احتمال وحشيته وحقارته وانقضضت بكل ما أوتيت من حقد عليه مشوهاً وجهه بأظافري لكن جسدي خانني فلم أستطع الوصول لكي أقضم حلقه وروحه لذا رحت أقول بأعلى صوتي:

- قتلة، أنتم قتلة مجرمون.

كان الغضب يأكلني والصراخ الممزوج بصوتي وصوته ودمائه يملأ المستشفى، بينما أسرع سعيد لإبعادي عن أدريان وبعد جهد كبير أجبرني تحت وطأة الضرب أن أبتعد عنه، وغادر الاثنان الغرفة بعد أن دخل العديد من الممرضين والأطباء لتفقد ما يجري.

كان لهاثي هائلاً وأظافري المجبولة بدم أدريان تظهر شدة المعركة التي جرت في تلك اللحظة، لا يمكن لهذا أن يبرد همتي في الانتقام لذا سأجرب مجدداً حتى أنهي حياة هذين المجرمين. ظللت أردد بصوتي المخنوق: "قتلة" حتى عاد سعيد وبيده حقنة مخدرة طالباً من الممرضين تثبيتي بقوة، ولم أستطع إلا أن أصرخ بهم للابتعاد لكن تأثير تلك الحقنة كان سريعاً أفقدني وعيي في عدة لحظات.

مر الوقت وصارت تختلط علي الأصوات، كأن سعيد وأدريان وضعاني تحت تأثير مخدر دائم لئلا أصحو وأبلغ عن جريمتهما البشعة، لذا حاولت قدر الإمكان أن أنصت لمعرفة ما يجري حولي، لكن الضجيج المستمر دون توقف منعني من اقتناص أي فرصة لإدراك الأحاديث والصراخ والضحكات المتنوعة حولي، ورغم إعياء جسدي وخمول عيني إلا أنني استكشفت التفاصيل المختلفة حولي مع قضبان وضعت على النافذة، ورسومات وألوان مختلفة على الجدران بينما تم تثبيت يدي بقطع قماشية تمنعني من الحراك، هدأت قليلاً وتنفست بمنتهى البطء في محاولة للتركيز أكثر لعلي أعود إلى الواقع قليلاً خوفاً

من أن أعلق في وهم ما يحمل انكساراتي خارج إطار الحقيقة.

لم أتحرك من مكاني وبقيت ثابتاً كالسرير الخشبي العريض، ثم سمعت بعض الخطوات التي كانت تتقدم نحو الغرفة قبل أن يُفتح الباب ويدخل رجلان غريبان مع بعض الأوراق، أحدهما كان يبدو أنه طبيب والآخر يرتدي بزة رسمية سوداء لم أعلم سبب دخولهما فقد كان ذهني مشوشاً وتلك الأصوات في الخارج والداخل لا تهدأ مطلقاً، الشيء الذي استدعاني لأغلق أذني عن كم الإزعاج الذي يصلني قبل أن يجبرني صوتهما المرتفع وهما يتبادلان حديثاً هاماً يخصني على الإنصات بكل ألم:

- ما هي حالتنا الجديدة؟
- اسمه جاسم جاء منذ عدة أسابيع، تعرض لحادثة سببت له تشوهات وإصابة خطرةً في الدماغ، ومنذ ذلك الحين يعاني من انفصام شديد وهلوسات مستمرة.
- هلوسات من أي نوع؟
- يستمر بإخباري بأن هناك كياناً شريراً في الجدران وأحياناً يرى نوراً يخرج من يديه، وآخر مرة كان

يستمر بذكر أدريان وسعيد ويردد: "قتلة".
حسناً، أعطوه رقماً وراقبوا وضعه باستمرار.

خرج الاثنان وأنا ما زلت تحت تأثير صدمة ما يجري، لا يمكن أن يكون ذلك حقيقياً لقد كنت تحت تأثير المخدر طوال تلك الفترة.

- لماذا لا يصدقني أحد ؟ يعبث القتلة خارجاً وأنا أسجن هنا.

حاولت النزول عن السرير بأقصى ما أستطيع لكن جسدي المثقل بالمخدر والضعف يمنعني من التحرك لذا جربت أن أزحف معتمداً على طاقة يدي وبالفعل سقطت في البداية على الأرض، ورغم أنني خشيت من أن يسمعني أحد إلا أنني تابعت الزحف حتى وصلت إلى أسفل النافذة حيث كانت تعلو خارجاً الأصوات بصراخها وجنونها وضحكاتها.

اكتسحتني ذكرى نافذة غرفتي حين كنت حبيس جنون أبي وحبه للسيطرة... شعرت بالعجز ذاته واليأس ذاته... وتذكرت ما كان يقوله جاسم الصغير في محاولة لتهدئة نفسه:

" من المستحيل أن أبقى حبيس الجدران للأبد..".

أمسكت بطرف الستارة البيضاء المنسدلة وجربت النهوض، لكنني فشلت أول مرة لأعاود المحاولة أكثر من مرة حتى وصلت في النهاية إلى طرف النافذة ورأيت كم الناس الذين يعدون ويجلسون ويصرخون ويبكون ويضحكون، وعلى الباب الرئيس في نهاية الحديقة ذات الأسوار الإسمنتية المرتفعة بنهاياتها الحديدية كان هناك باب عريض كتب في أعلاه:
(مستشفى الأمل للصحة النفسية)

*** نهاية الجزء الثاني ***

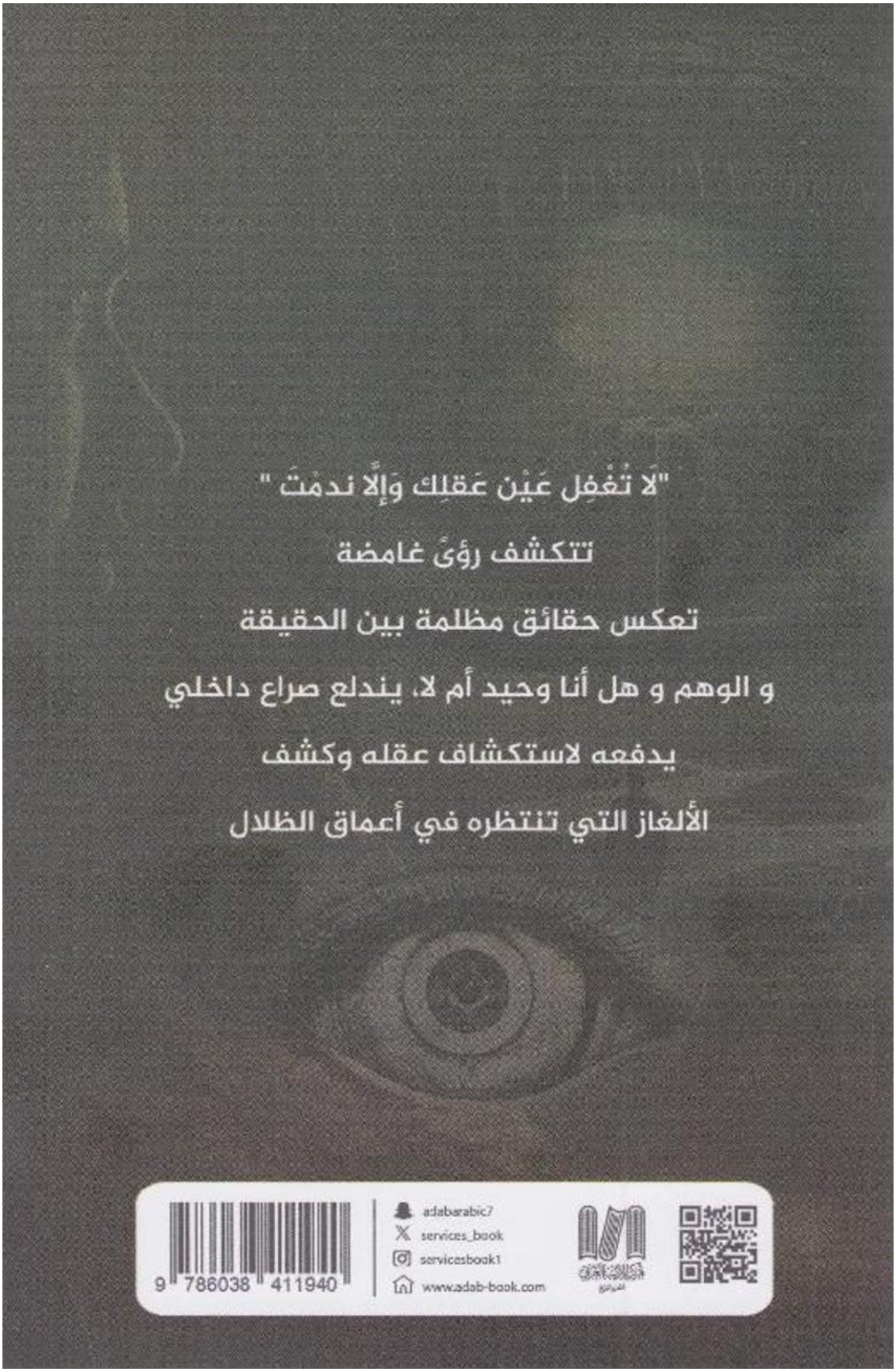

"لَا تُغْفِل عَيْن عَقلِك وَإلَّا ندمْتَ "
تتكشف رؤىً غامضة
تعكس حقائق مظلمة بين الحقيقة
و الوهم و هل أنا وحيد أم لا، يندلع صراع داخلي
يدفعه لاستكشاف عقله وكشف
الألغاز التي تنتظره في أعماق الظلال
adabarabic7
services_book
servicesbook1
www.adab-book.com
9 786038 411940